الجزء الأول

هناك إله...

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة (١)

أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد

يمكننا القول، دون أن نجترئ على الدقة العلمية، أن سير أنتونى فلو Sir Antony flew **أستاذ الفلسفة البريطانى الشهير قد تَزَعَّم حركة الإلحاد فى العالم لما يزيد عن نصف قرن.** فقد أَلَّف أكثر من ثلاثين كتابًا وبحثًا فلسفيًّا كانت بمثابة جدول أعمال الفكر الإلحادى طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

لذلك نزل خبر إقراره بأن «هناك إله» على الفلاسفة والمفكرين الملحدين كالصاعقة، فانبروا للدفاع عن إيمانهم المقدس بالإلحاد! وعبروا عن سخطهم وازدرائهم لهذا التحول، وكالوا للرجل كل ما لا يليق من التهم والنقائص.

إن عقول الفلاسفة التى عانت كثيرًا من اضطهاد محاكم التفتيش، ومن الحَجْر على حرية الفكر فى العصور الوسطى فى أوروبا، قد أصبحت تتلذذ بأن يأكل بعضها بعضًا. يبدو أن التعصب والفظاظة والغطرسة وادعاء الاستئثار بالمعرفة، لم تعد حِكرًا على المتعصبين الدينيين وحدهم.

والسؤال الذى يطرح نفسه فى بداية الكتاب: **ما هى إضافة أنتونى فلو إلى منهج معالجة قضية الإلحاد؟**

(١) هذه المقدمة هى عرض لمقدمة الكتاب الأصلى «هناك إله»، التى كتبها «روى أبراهام فارجيس».

يمكن القول ـ دون أدنى مبالغة ـ إنه خلال المائة عام الماضية لم يعرض أى فيلسوف ـ من ذوى الوزن ـ الفكر الإلحادى بالأسلوب العميق المنظم كما فعل أنتونى فلو. فقد طرح حججًا جديدة ضد الإيمان بالله، كما رسم بأفكاره الأصيلة **خارطة الطريق للفلاسفة الذين عارضوا الإيمان** والتدين طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

فإذا أخذنا كتابات فيلسوف عظيم مثل «**برتراند راسل**[1] Bertrand Russell»، كمثال لما كُتب عن الإلحاد فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وجدناها لا تخرج عن مقالات أدبية سطحية، لا تطرح فكرًا عميقًا، وفى أفضل حالاتها تلفت النظر إلى المشاكل النفسية للإنسان (مثل معاناة البشرية للشر والألم) دون معالجة جديدة.

يبدو أن الفلاسفة الكبار كانوا يترفعون عن أن «يلوثوا أيديهم الرقيقة وعقولهم الحكيمة بالخوض فى هذه القضية الشعبية السوقية المبتذلة!»، قضية التدين والإلحاد.

* * *

الفلسفة الإلحادية المعاصرة

وحتى نستطيع أن نتتبع مسيرة أنتونى فلو الفكرية، نعرض ما كانت عليه **الفلسفة الإلحادية فى القرن العشرين ومدخل القرن الحادى والعشرين**، وذلك من خلال طرح مفاهيم الفلسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism ومفاهيم الإلحاد الجديد New Atheism.

الإرهاب الفكرى متمثلًا فى:

الفلسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism

يُعتبر الفيلسوف الفرنسى «أوجست كونت[2] Auguste Comte» هو مؤسس **الفلسفة الوضعية** Positivism التى تدرس الظواهر والوقائع المادية وحسب، وتتبنى شعار «**ما لا يمكن رصده، لا وجود له**»، رافضة كل تفكير فى الغيبيات وعلى رأسها الإله.

(١) برتراند راسل Bertrand Russell: وُلد فى ويلز بالمملكة المتحدة (١٨٧٢ – ١٩٧٠). وهو فيلسوف ورجل منطق عظيم، من علماء الرياضيات، ومن المهتمين بالتاريخ الإنجليزى. ومن المناهضين للحروب والتوسع الاستعمارى. حصل على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٥٠؛ لكتاباته عن المثل الإنسانية العليا ووقوفه بجانب حرية الفكر.

(٢) أوجست كونت Auguste Comte: وهو الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسى الشهير (١٧٩٨ – ١٨٧٥).

ثم طرح الفيلسوف الإنجليزى سير ألفريد آير [1] A.J.Ayer عام ١٩٣٦ **الفلسفة الوضعية المنطقية** Logical Positivism[2]، كفرع من الفلسفة الوضعية. وتقوم هذه الفلسفة على مبدأ **التَثَبُّت** The Verification Principle الذى يرى أن قبول أى افتراض أو مسألة، يتوقف على القدرة على إثباتها أو نفيها عمليًا بالتجربة، أو رياضيًا، أو منطقيًا من خلال المدلول المباشر للألفاظ التى تشرح هذا المفهوم. ومن ثَمَّ، فلا معنى لأى افتراض أو مسألة تقع خارج نطاق العلم التجريبى أو الرياضيات أو المنطق المباشر.

ومن ثم، ترى الفلسفة الوضعية المنطقية **أن مفاهيم مثل الإله أو الروح أو التدين أو الإلحاد لا تعنى شيئًا؛ إذ لا يمكن إثبات خطئها أو صحتها تجريبيًا أو رياضيًا أو منطقيًا**. لذلك فإن مقولة مثل «الله موجود» لا معنى لها، ومن ثَمَّ يتساوى أمام العقل أن يكون الإنسان مؤمنًا أو ملحدًا.

رفض أنتونى فلو هذا التعالى المتغطرس والازدراء الذى تمارسه الفلسفة الوضعية المنطقية تجاه المفاهيم الدينية. وبالرغم من أنه فى بحثه الشهير «زيف علم اللاهوت» يشكك فى هذه المفاهيم، إلا أنه **يطالب بأن يدخل الفلاسفة الملحدون فى حوارات ومناظرات مستمرة مع المتدينين**.

وينتهى عصر الفلسفة الوضعية المنطقية عندما يعلن مُنَظِّرها الأكبر (سير آير) فى خمسينيات القرن العشرين أن هذه الفلسفة ملأى بالتناقض، بالرغم من أنه قضى السنوات الطوال فى معالجة أخطائها.

وكما بنى ألفريد آير الفلسفة الوضعية المنطقية على كتابات الفيلسوف الألمانى الإنجليزى لودفيج ويتجنشتين[3]، فإنه بنى رفضه لهذه الفلسفة على كتابات الفيلسوف العظيم نفسه، الذى سبقه أيضًا إلى رفضها، عندما وضع **نظرية اللغة والألعاب** Theory of language and games.

---

(١) سير ألفريد آير (١٩١٠ – ١٩٨٩) : فيلسوف إنجليزى، ورئيس نادى سقراط بجامعة أكسفورد.

(٢) طرحها آير فى كتابه «اللغة والحقيقة والمنطق Language, Truth and Logic». وقد كان أول ظهور لهذه الفلسفة فى عشرينيات القرن العشرين، عند مجموعة من الفلاسفة الأوروبيين تُعرف بمجموعة فيينا Vienna Circle.

(٣) يأتى التعريف به فى الفصل الأول.

فى هذه النظرية، يُشَبِّه ويتجنشتين مجالات المعرفة بقواعد ممارسة الألعاب المختلفة. فكما أننا لا نلعب الشطرنج بقواعد وقوانين كرة القدم، فكذلك لا يمكننا تطبيق قواعد البحث فى العلوم التجريبية التى تعتمد على الحواس (كالكيمياء والفيزياء) على العلوم الإنسانية (كالفلسفة والمنطق والأخلاق). كذلك **لا يمكن دراسة المفاهيم الدينية بمقاييس المفاهيم العلمية**، فلا ينبغى محاولة فهم مقولة «أن الله موجود فى كل مكان (كُلِّ الوجود)» بمفاهيم المكان فى فيزياء نيوتن أو فيزياء أينشتين.

هكذا قام مؤسسا الفلسفة الوضعية المنطقية (ويتجنشتين وآير) بإعلان موتها والقيام بدفنها.

عودة الوعى

التدين العقلانى Rational Theism

نفض الفلاسفة أيديهم من الفلسفة الوضعية المنطقية، بعد أن فتح لهم أنتونى فلو الباب لمناقشة مفاهيم المتدينين، فظهرت فى الساحة التساؤلات حول معنى **الوجود الإلهى**، وإذا كان هناك **إيمان فطرى بالألوهية** داخل نفوسنا، و...

وظهر هذا التوجه إلى التدين جَليًّا فى غلاف مجلة تايم Time عدد أبريل ١٩٨٠، فجاء فى مقال الغلاف: يقود بعض كبار الفلاسفة **ثورة فكرية بيضاء**، لم يكن يتوقعها أحد منذ عقدين من الزمان، وتهدف هذه الثورة إلى إعادة الإله إلى عرشه.

الإلحاد الجديد The New Atheism

الرِدَّة نحو الفلسفة الوضعية المنطقية

مرة أخرى يتفاقم الإلحاد ليطل برأسه تحت اسم الإلحاد الجديد The New Atheism، وقد اُستخدم هذا الاصطلاح لأول مرة فى مجلة شبكة المعلومات [1] Wired Magazine عدد نوفمبر ٢٠٠٦.

(١) مجلة شبكة المعلومات Wired Magazine: مجلة أمريكية شهيرة، بدأ إصدارها عن طريق شبكة المعلومات Net فى سان فرانسيسكو فى مارس ١٩٩٣. وتهتم بعرض تأثير التكنولوجيا على الثقافة والسياسة والاقتصاد.

وقد لاقت الكتب التى تناولت هذا المفهوم **رواجًا كبيرًا**؛ إذ وجد فيها الإعلام مادة ثرية ساخنة مثيرة، بالرغم من تواضع ما طرحته من حجج[١]. وتهاجم هذه الكتابات جميع الديانات (السماوية وغير السماوية) باختلاف أماكنها وأزمانها. وبالرغم من ذلك فهى تتحدث بلهجة وَعْظية أصولية، يرتدى فيها المؤلفون ثياب الوعَّاظ الذين يَصِمون القراء بالجهل والسطحية، ويوجهون إليهم السُباب اللعين إذا لم يتوبوا عن إيمانهم الساذج بالألوهية والربوبية!

وعلى القارئ لهؤلاء المؤلفين أن يتبنى موقفًا محددًا: فمَن ليس معهم فهو ضدهم، إما أبيض وإما أسود، ولا مجال للمخادعة أو الغموض فى المواقف! حتى الفلاسفة الكبار الذين يُظهرون بعض التفهم لحجج المؤمنين، فقد تم ضمهم إلى قافلة الخونة سطحيِّىْ الفكر.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: **هل أثرى كُتَّاب هذه الموجة المناقشات الفلسفية** التى اسْتَعَرت طوال العقود السابقة حول قضيه التدين؟

والإجابة بالنفى، وذلك لثلاثة أسباب:

أولًا: **لم يُدْلِ المتفلسفون الملاحدة الجدد برأى ذى قيمة** فى القضايا الفلسفية المتعلقة بمفهوم الربوبية[٢] **بل نجد منهم تهربًا عجيبًا من هذه القضايا**. فهذا كبيرهم ريتشارد دوكنز[٣] يصف نشأة الحياة والعقل بأن ذلك كان «**حادثًا عارضًا نتيجة لضربة حظ!**». وهذا لويس ولبرت[٤] يقول: «**لقد تعمدت تحاشى الخوض فى نشأة العقل؛ إذ إننا ما زلنا لا نفهم عنه شيئًا!**». بينما يحل الفيلسوف والبيولوجى الأمريكى الشهير دانييل دينيت[٥] معضلة نشأة العقل بسذاجة شديدة؛ إذ يقول: «**ثم حدثت المعجزة !!**».

---

(١) من أهم هذه الكتب:
- The Blind watch maker
- The God Delusion
- Breaking the spells
- Six Impossible things Befor Breakfast

(٢) سنعرض هذه القضايا خلال فصول الكتاب.

(٣) نُعَرِّف به بعد قليل.

(٤) لويس ولبرت Lewis Wolbert: وُلد فى إنجلترا عام ١٩٢٩. يشغل منصب أستاذ البيولوجيا التطورية بقسم التشريح بجامعة لندن. وهو إعلامى ومؤلف شهير، وأشهر كتبه Six impossible things befor breakfast، صدر عام ٢٠٠٦.

(٥) دانييل دينيت Daniel Dennett: وُلد فى بوسطن عام ١٩٤٢. وهو فيلسوف ملحد مهتم بفلسفة العقل وفلسفة العلم، وبالبيولوجيا التطورية.

ثانيًا: لم يدرك الملاحدة الجدد نقاط الضعف الجذرية فى بنية «**الفلسفة الوضعية المنطقية**» **البائدة**[1] التى يسعون لإحيائها، ولا شك أن من يتجاهل الأخطاء المنهجية فى القضية التى يتعامل معها سوف يقع فيها لا محالة، وقد حدث.

ثالثًا: لم يَطَّلع الملاحدة الجدد على الكم الهائل من الدراسات الفلسفية الجديدة، ولا على البراهين القوية التى قدمها العلم، وصارت تخدم دراسات فلسفة الأديان.

لذلك نقول بمنتهى الموضوعية، **إن الإلحاد الجديد ما هو إلا رِدة إلى الفلسفة الوضعية المنطقية التى تم رفضها ودفنها من قِبَل أشد المتحمسين لها.**

نموذج من الملاحدة الجدد ....

فلنلقِ نظرة على أفكار كبير الملاحدة الجدد **ريتشارد دوكنز**[2] Richard Dawkins، حتى نرى تهافت المنهج الذى يفكر به هذا الرجل، فلا نُخدَع فيه، ولا فى ضخامة إنتاج هؤلاء القوم، ولا بالهالة التى يحيطهم بها الإعلام الغربى:

١- يُرَوِّج البعض أن الفيلسوف الكبير **برتراند راسل** هو الأب الروحى لدوكنز؛ إذ إن راسل معارض قوى للأديان السماوية، ويُطَعِّم معارضته بكثير من السخرية والتلميحات والمبالغة، إلا أن هناك اختلافًا شاسعًا بين الرجلين.

تخبرنا كاترين تيت Katharine Tait ابنة راسل فى كتابها «أبى، برتراند راسل My father, Bertrand Russell» أن فيلسوفنا العظيم كان يشعر دائمًا بوجود **مكان شاغر فى عقله وفى قلبه**. مكان كان يشغله الرب عندما كان راسل صبيًّا، ثم أصبح خاويًا ولم يعثر على شىء يملؤه. وتقول كاترين بأن والدها كان يشعر دائمًا أن جوهر الإنسان لا ينتمى إلى هذا العالم المادى، وأنه أخذ منذ بداياته الفلسفية وطوال حياته **يبحث عن الإله باهتمام ومثابرة.**

(١) يعرض أنتونى فلو نقاط الضعف هذه فى الفصل الأول.

(٢) ريتشارد دوكنز Richard Dawkins: بريطانى وُلد فى نيروبى بكينيا عام ١٩٤١، يعيش الآن فى أكسفورد. وهو عالم بيولوجى، كان يشغل منصب أستاذ تبسيط العلوم فى جامعة أكسفورد. وصل إلى الشهرة من خلال كتابه «الجين الأنانى The Selfish Gene» الذى صدر عام ١٩٧٦، وعرض فيه مفهومه للتطور من خلال دور الجينات. وهو من المعارضين لمفهوم الخلق الخاص ومفهوم التصميم الذكى، كما ظهر فى كتابه «صانع الساعات الأعمى The Blind Watch Maker». وفى عام ٢٠٠٦ أصدر كتاب «أكذوبة الإله The God Delusion» الذى ينكر فيه وجود أى قوى غيبية، وينظر إلى الإيمان باعتباره من الضلالات والأوهام، ويُعتبر هذا الكتاب أشهر كتبه الآن.

وكما يحدث مع المفكرين الكبار، اصطدم برتراند راسل (كما تخبرنا ابنته) بالعديد من **المسيحيين المتعصبين والكئيبين**، الذين يعرضون الدين بأسلوب يُذهب بسماحة العلاقة بين الله والإنسان، وكذلك بين الإنسان والإنسان، كما يُذهب ببهجة الحياة، **مما جعله ينفر من الدين بالكلية**، ووصل الأمر إلى أنها فشلت تمامًا فى أن تدخل مع والدها فى أى حوار دينى.

أين هذه **المعاناة داخل نفس برتراند راسل من أجل البحث عن الحقيقة**، من العَمَاء الذى يعانى منه ريتشارد دوكنز.

٢- يقارن دوكنز بين برتراند راسل باعتباره فيلسوفًا ملحدًا يتحرى أمانة الفكر، وبين الفيلسوف أنتونى فلو. فيقول إن فلو قد أعلن ارتداده عن الإلحاد بعد أن كَبُر فى السن، وإنه أعلن «أن هناك إلـهًا» **حتى يملأ الإعلام ضجيجًا حوله**، بينما كان برتراند راسل فيلسوفًا كبيرًا حصل على جائزة نوبل.

هل لاحظت **السخرية والمقابلة** بين وصف فلو بأنه «**كَبُر فى السن**» وبين وصف راسل بأنه «**فيلسوف كبير**»؟ لقد فات دوكنز أن المفكرين الحقيقيين يُقَيِّمون الحجج والبراهين دون النظر إلى عِرْق أو جنس أو عُمْر.

كذلك فات دوكنز أن مَثَلَه الأعلى الـمُـدَّعَى، برتراند راسل، قد وصف نفسه بأنه يتبنى (أو يُنشئ) مذهبًا فلسفيًّا جديدًا كل بضعة سنوات، وهذا دأب معظم الفلاسفة الكبار.

٣- عندما وجه أحدهم سؤالًا إلى دوكنز، عن **الأمور الذى يعتقد أنها صواب بالرغم من أنه لا يملك دليلًا عليها**، أجاب دوكنز : إنى «**أعتقد**»أن الكون نشأ تلقائيًّا من العدم، وأن الحياة وجود مادى، وأن العقل البشرى من نتاج الانتخاب الطبيعى كما وصفه دارون. أى أن دوكنز انطلق فى كل القضايا الجوهرية من «**الاعتقاد**» بدون دليل علمى أو فلسفى، وفى الوقت نفسه يرفض رجوع فلو إلى الإيمان بدافع من الحجج العلمية والفلسفية.

٤- من سقطات دوكنز الكبيرة، أنه حمل **مقولات أينشتين حول «الإله»**، على أنه يقصد منها «**الطبيعة**». كما يصر دائمًـا على أن يَنسب أينشتين إما إلى الإلحاد أو إلى وحدة الوجـود[1] (pantheism). هذا فى الوقت الذى يؤكد فيه أينشتين على إيمانه بوجود عقل حكيم هو المنشئ والمدبر لقوانين الطبيعة.

---

(١) وحدة الوجود: مذهب فلسفى يرى أن الإله والمخلوقات شىء واحد، وأن العالم هو صورة الإله، ومن ثَمَّ فلا موجود إلا الإله. ومن ثم، لا يرى القائلون بوحدة الوجود أن الإله قد خلق العالم، بل يقولون: إن العالم هو الإله وإن الإله هو العالم.

كذلك يؤمن الكثيرون من **علماء الفيزياء الكبار المعاصرين** أمثال ستيفن هوكنج وهيزنبرج وبلانك بما يؤمن به أينشتين[١]، ولكن دوكنز ينفى عنهم ذلك الإيمان، ويُصر على أن يضمهم إلى زُمرَة الملحدين الوضعيين الذين يؤمنون بأن «ما لا يمكن رصده لا وجود له».

٥- يوجه الفيزيائى الكبير جون بارو[٢] نقده اللاذع لمنهج دوكنز، قائلًا له: إن ما تعانيه من مشاكل مع الدين يرجع إلى أنك لست عالِـمًـا حقيقيًّا، **فأنت من البيولوجيين ولست من الفيزيائيين**[٣]!، لذلك فأنت تعجز عن تصور حجم ما فى الوجود والحياة من تعقيد. ويضيف جون بارو موجهًا نقده الساخر لدوكنز: إنك ما زلت **محكومًا بعقدة البيولوجيين التطوريين** فى القرن التاسع عشر، ورغبتهم فى إثبات وجهة نظرهم بأى ثمن، ولو على حساب الحقيقة، ولا شك أن لَىَّ الحقائق لا يُعين كثيرًا أو قليلًا فى فهم القوانين التى تحكم الكون.

ونختم حديثنا عن دوكنز بأن ننبه القارئ إلى أنه ينتمى إلى مجموعة من الكتاب العلميين أمثال كارل ساجان[٤] وإسحق عظيموف[٥] الذين لا يكتفون بأن يكونوا علماء وكُتَّابًا، بل يعتبرون أنفسهم كهنة العلم، الذين **يحددون لنا ما يُسمح بأن نؤمن به من الغيبيات**.

عودة إلى أنتونى فلو

وحتى نوجز مساهمات أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد، نعرض ثلاث دراسات تُعتبر **علامات بارزة وضعها فلو فى مسار الفلسفة الإلحادية**[٦]، وهذه الدراسات هى:

(١) نعرض تعريفًا بهؤلاء العلماء فى الفصل السادس.

(٢) جون بارو John Parow: أستاذ الفيزياء بجامعة Memorial بكندا.

(٣) يرى الفيزيائيون أن البيولوجيا علم ينبثق من تاريخ الكائنات الحية، لذلك يضعونه فى منزلة أدنى من العلوم التجريبية.

(٤) كارل ساجان Carl Sagan: وُلد بالولايات المتحدة (١٩٣٤ - ١٩٩٦)، وهو عالم الفلك وعلوم الكون الشهير، من المهتمين بالحياة خارج كوكبنا، عمل مستشارًا لوكالة أبحاث الفضاء الأمريكية NASA. وهو من المهتمين بتبسيط العلوم. وهو المُعد للبرنامج التليفزيونى «الكون Cosmos. A personal Voyage» الذى يُعتبر أكثر البرامج التليفزيونية مشاهدة فى التاريخ؛ إذ شاهده أكثر من ٦٠٠ مليون إنسان فى ٦٠ دولة.

(٥) إسحاق عظيموف Isaac Asimov: أستاذ فى الكيمياء الحيوية، روسى المولد أمريكى الجنسية (١٩٢٠-١٩٩٢). له حوالى ٥٠٠ كتاب فى تبسيط العلوم وفى الخيال العلمى.

(٦) نعرض المزيد عن هذه الدراسات فى الفصل الثانى من الكتاب.

١- **زيف علم اللاهوت** Theology and falsification: بحث قدمه أنتونى فلو عام ١٩٥٠، حاول فيه نسف قضية الإيمان من أساسها بأن أكد خواء المقولات الدينية من أى مفاهيم وأفكار ذات معنى. ودعى فى الوقت نفسه إلى فتح باب الحوار بين الملاحدة والمتدينين. وقد صار هذا البحث من أكثر الدراسات الفلسفية انتشارًا فى القرن العشرين.

٢- كتاب «**الإله والفلسفة**[١] God and Philosophy»: يؤكد فيه فلو أنه لا ينبغى إصدار الحكم فى قضية «هل هناك إله ؟» قبل أن يطرح المتدينون تصورًا واضحًا لصفات هذا الإله (ما معنى أن يصف المتدينون الخالق بأنه الروح، كلى الوجود، كلى العلم).

٣- كتاب «**فرضية الإلحاد**[٢] The Presumption of Atheism». وفيه يدير فلو الدفة تمامًا ليجعل الكُرَة فى ملعب المتدينين، فيضع على عاتقهم مهمة إثبات وجود الإله، بعد أن كان التناول الفلسفى السابق يطالب الملاحدة بإثبات عدم وجود الإله.

وأخيرًا نقول: إنه من الموافقات العجيبة، أن سير أنتونى فلو الذى وقف فى وجه الفلسفة الوضعية الإلحادية منذ خمسين عامًا، هو الذى يتصدى اليوم للإلحاد الجديد. إنه الرجل القادر على أن يدحض حجج الملاحدة الأقدمين والمعاصرين، ويحلل ما يقدمه العلم الحديث فى هذا المضمار.

ونستكمل هذه المقدمة بأن **نعرض تقديم أنتونى فلو لكتابه «هناك إله»**:

منذ أعلنت تحولى عن الإلحاد إلى الإيمان بوجود إله، وأنا أُسأل كثيرًا عن الأسباب وراء ذلك، كما طُلب منى مرارًا أن أكتب حول هذا التحول.

من إرهاصات التحول: أننى أشرت بحيادية فى مقدمة الطبعة الأخيرة من كتابى «الإله والفلسفة» إلى المناقشات الفلسفية الدائرة وقتها حول قضيه الألوهية، ولم أعرض وجهة نظرى. وأعتقد أنه قد آن الأوان لأقول كلمتى الأخيرة فى هذا الأمر، **لقد صرت أؤمن أن هناك إلـهًا**.

ومنذ أعلنت ذلك كَثُر فى الإعلام القول بأن كِبَر سنى وخوفى من الانتقال إلى الحياة الأخرى ولقاء الإله، يقف وراء تحولى عن الإلحاد إلى الإيمان.

(١) طُبع أول مرة عام ١٩٦٦.
(٢) طبع أول مرة عام ١٩٧٦.

إن من يرددون هذا الكلام لم يتابعوا كتاباتى حول **عدم إيمانى، حتى الآن، بوجود حياة أخرى بعد الموت**، بالرغم من إيمانى بالإله الخالق للكون. وقد طرحت تصورى الأخير لهذا الأمر فى كتابى «منطقية الموت The Logic of Mortality».

إن هذا المفهوم، مع **عدم تقبلى لفكرة تَجَسُّد الإله على هيئة بشرية (المسيح) كما يؤمن المسيحيون**، من الأمور التى لم أغير فيها رأيى.

ولا شك أن قُـرَّائى يعرفون أن هذه **ليست المرة الأولى التى أغير فيها رأيى فى أمر هام، بناءً على دراسات عميقة**. فقد سبق أن تحولت من الماركسية إلى الدفاع القَوى عن فكرة السوق الحر. كما تراجعت منذ عشرين عامًا عن رأيى السابق بأن أفعال الإنسان توجهها العوامل المادية فقط.

وأعرض فى كتابى هذا (هناك إله) عوامل تحولى عن الإلحاد إلى الإيمان، **وأترك الأمر بين أيديكم لتروا وجاهه أسباب هذا التحول.**

ونختم هذا التقديم، بقول أنتونى فلو بأن **اهتمامه بالإله ينبع من ثلاث كلمات**:

إنه اهتمام «حكيم – أخلاقى – فضولى Prudential, moral, curious».

فهو اهتمام **حكيم**؛ إذ إنه إذا كان هناك إله يسيطر على مصير الإنسان، فمن الحُمْق ألا نتعرف إليه ونعمل على مرضاته.

وهو اهتمام **أخلاقى**؛ إذ لا شىء جدير باهتمام الإنسان، ويحقق له الخلود، قدر الوقوف إلى جانب الحقيقة.

وهو اهتمام **فضولى**؛ إذ لا شىء يثير العقلية العلمية ـ الفلسفية قدر استكشاف الأمور العظيمة، ولا أعتقد أن هناك أعظم من اكتشاف أن هناك إلـهًا.

مرة أخرى، **إنه اهتمام «حكيم – أخلاقى – فضولى»**.

الباب الأول

كيف أصبحتُ فيلسوفًا ملحدًا ؟

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

بذور الإلحاد

وُلدت فى لندن عام ١٩٢٣، **ونشأت فى بيت مسيحى ملتزم**؛ إذ كان والدى كاهنًا إنجليزيًّا كبيرًا من النشطاء فى الكنيسة، كما كان محاضرًا ثم رئيسًا لكلية الدراسات الدينية فى كمبريدج.

ومنذ طفولتى، أُلحقت بمدرسة خاصة (كينجزوود Kingswood)، لا أدرى لماذا لم أكن مهتمًّا بالدراسات والممارسات الدينية، ولِمَ لم **أشعر بالتقديس والاحترام الواجبين أثناء وجودى فى كنيسة المدرسة!** حتى الترانيم الدينية الشجية لم أكن أشارك فيها ولا أتأثر بها. ذلك فى الوقت الذى كنت أقرأ فيه الكتب السياسية والتاريخية والعلمية بنهم. باختصار لم أشعر فى صغرى بأية رغبة فى التواصل مع الرب.

ما زلت، حتى الآن، لا أدرى سببًا لهذا **العزوف عن الدين فى صباى**. كل ما أستطيع قوله هو أن بذرة الإيمان التى كانت داخلى عند التحاقى بالمدرسة، ماتت قبل تخرجى منها.

لا أدرى على وجه التحديد، متى وكيف توجهت إلى الإلحاد بالرغم من النشأة الدينية؟ بالتأكيد هناك **عوامل كثيرة شاركت فى تشكيل قناعاتى الإلحادية، منها:**

١ - **ورثت عن والدى «الحكمة»**، التى هى (كما يقول الفيلسوف الألمانى كانط[١] Kant) **أن تختار** من بين الأمور اللامتناهية المحيطة بنا، ما هو جدير باهتمامك. وبينما كان والدى يرى الحكمة

(١) إيمانويل كانط Immanuel Kant: من أشهر مفكرى التنوير فى أوروبا الحديثة (١٧٢٤ - ١٨٠٤).

فى تعليم الناس المفاهيم الدينية المسيحية، لم أجد ما هو جدير باهتمامى أكثر من **المشاكل المعاصرة التى تشغل بنى الإنسان**.

٢- كذلك ورثت عن والدى **شغفه العقلى ومنهجه فى البحث**. فعندما كان يبحث فى قضية من القضايا الدينية، كان يجمع ويحلل كل الحجج والبراهين الخاصة بتلك القضية، قبل أن يصدر الرأى فيها.

ومن المفارقات، أن اكتسابى لحب الحكمة واكتسابى لهذه العقلية المدققة المحللة الناقدة عن والدى، قد أخذانى بعيدًا عن إيمانه وتدينه.

٣- يمثل إحساسى «**بمعضلة الشر والألم**» أحد العوامل المبكرة وراء اندفاعى تجاه الإلحاد. كنت فى طفولتى وصباى، خلال السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية، كثير السفر مع والدى خلال الإجازات الدراسية إلى فرنسا وألمانيا. وما زلت أذكر المسيرات الهادرة التى رأيتها فى بافاريا، والتى تضم آلاف الفتيان من فرق الكشافة بملابسهم المميزة، والتى تتوعد المعاديين للنازية بالهلاك.

ارتسمت هذه المشاهد فى عقلى فى فتره صباى، وظلت بكل ما تحمل من كُرْه، تمثل تناقضًا مع ما تربيت عليه فى عقيدتى المسيحية من أن «**الله محبة**»؛ إذ كيف يسمح من يحبنا بهذه الشرور[1]؟!

٤- عندما التحقت بمدرسة كنجزوود، كان يترأسها **رجل من أعظم مُديرى المدارس**. كان يشجعنا كثيرًا على التردد على المكتبة للاطِّلاع الحر. وكانت موعظة الأحد (عندما كان يلقيها بنفسه) فى كنيسة المدرسة تتحدث عن عجائب الطبيعة وقوانينها، ولا تتعرض على الإطلاق لحياة أخرى بعد الموت.

٥- كنت دائم **النقاش مع أقرانى ومع من هم أكبر منى عُمرًا**، حول القضايا الإيمانية التى يطرحها الكهنة. وكنت غير متقبل على الإطلاق لفكرة الرب «كُلِّى الوجود - كُلِّى العلم - كُلِّى القدرة».

(١) يُعرف هذا التناقض الظاهرى بمعضلة الشر والألم. وقد قاد هذا التناقض الكثيرين إلى الإلحاد منذ قديم الزمان، بينما قدمت الأديان السماوية التفسيرات المقبولة لهذا التناقض الظاهرى.

وما إن بلغت سن الخامسة عشر، حتى أعلنت لزملائى **رفضى الإقرار بوجود الإله**. تم ذلك كله دون أن أتناقش مع قس الاعتراف[1] حول شكوكى، كذلك نجحت فى أن أخفى قناعاتى الجديدة عن والدىَّ لفترة طويلة حتى لا أعكر صفو البيت.

وبحلول شهر يناير عام ١٩٤٦، وكنت قد قاربت الثالثة والعشرين من عمرى، ذاع الخبر بأننى قد **أصبحت ملحدًا دهريًّا**[2]، وأن قناعتى لا رجعة فيها، فشعر مَن بالبيت أنه لا طائل من مناقشة هذا الأمر معى.

وتبعًا للقول المأثور «**إن ما تؤمن به فى سن الثالثة عشر هو ما تموت عليه**»، أستطيع القول: إن الأفكار التى كونتها فى صباى قد ظلت معى حتى بلغت الثمانين من عمرى واقتربت من الموت.

هكذا، وبمنتهى الصدق والأمانة العلمية، يصرح أنتونى فلو بأن اندفاعه فى سنه المبكرة نحو الإلحاد كان متسرعًا، وكان نتيجة لأسباب واهية وخاطئة. وبالرغم من أنه أعاد النظر مرارًا فى هذه الأسباب، فإنه لقرابة سبعين عامًا لم يضع قدمه على أرض صلبه تدفعه لتغيير قناعاته الإلحادية.

تشكيل فيلسوف

ذكرت أننى ورثت عن والدى الحكمة والعقلية المدققة المحللة الناقدة. كما شجعنى الجو الذى وفره ناظر المدرسة فى كنجزوود على الاطلاع النهِم وإعمال الفكر.

فى عام ١٩٤٢، انتهيت من دراستى بمدرسة كنجزوود بمدينة كمبريدج، والتحقت بجامعة أكسفورد لدراسة الآداب. ولما كانت الحرب العالمية الثانية مستعرة، تم تجنيدى فى عمل غير قتالى فى القوات الجوية.

(١) قس الاعتراف، هو رجل دين يلجأ إليه المسيحيون ليعترفوا أمامه بذنوبهم، حتى يكون واسطة بينهم وبين الله فى قبول توبتهم.

(٢) الدهرى هو من لا يؤمن بحياة أخرى بعد الموت، ومن ثَمَّ فالقبر هو آخر المطاف. وقد وصف الدهريون هذا المعنى وقت نزول الإسلام بقولهم: ما هى إلا أرحام تدفع، وقبور تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر.

بعد انتهاء الحرب وتسريحى من الخدمة العسكرية فى يناير عام ١٩٤٦، عدت إلى **جامعة أكسفورد التى أصبحت بعد الحرب مكانًا يموج بالحوارات والمناقشات السياسية والثقافية**. وفى صيف ١٩٤٧، اجتزت الامتحان النهائى وتخرجت حاصلًا على مرتبة الشرف الأولى، وقررت أن أتخصص فى الفلسفة.

بدأت **دراساتى العليا فى الفلسفة** بجامعة أكسفورد تحت إشراف «**جلبرت رايل** Gilbert Ryle» الذى كان أستاذًا لفلسفة الميتافيزيقا (الإلهيات - الغيبيات)، ثم أصبح عام ١٩٤٧ رئيسًا لأقسام الفلسفة الثلاثة بالجامعة.

وتأثرت إلى حد كبير **بمدرسى «هنرى برايس** Henry Price»، الذى كنت أشاركه الاهتمام بالباراسيكولوجى[١]، وكنا نحاضر فى هذا الموضوع معًا فى اللقاءات والندوات المختلفة.

فى عام ١٩٤٨، حصلت على منحة لدراسة الفلسفة العقلية، كما طُلب منى فى الوقت نفسه أن أقوم بالتدريس فى أكسفورد، فكنت أقوم بشرح مذكرات الفيلسوف العبقرى «ويتجنشتين[٢] Wittgenstein».

كان أستاذى جلبرت رايل يسعى للقاء كل من يختلف معه فى قضية فلسفية ليتناقش معه فيها، وقد تعلمت منه هذا الأسلوب فى **المصارحة والمواجهة**، كما تعلمت منه القاعدة الذهبية التى ظلت تحكم تفكيرى وسلوكى طوال حياتى، وهو المبدأ الذى ينسبه أفلاطون[٣] فى كتابه «الجمهورية» لأستاذه **سقراط**:

«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا We must follow the Argument wherever it leads»

كان هذا الشعار هو القاعده التى قام عليها **نادى سقراط** بجامعة أكسفورد، والذى يعقد لقاءاته مساء الإثنين من كل أسبوع. كان رئيس النادى (فى الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٥٤) هو

(١) الباراسيكولوجى: فرع من علم النفس يبحث فى الظواهر الغريبة، كالتخاطر والتحكم فى الأجسام عن بعد وغيرها.

(٢) **لودفيج ويتجنشتين Ludwig Wittgenstein**: فيلسوف نمساوى إنجليزى (**١٨٨٩ - ١٩٥١**). شارك فى تأسيس الفلسفة الوضعية المنطقية، ومدرسة الفلسفة اللغوية الجديدة (نعرضها فيما بعد).

(٣) يمثل أرسطو وأفلاطون وسقراط **الثالوث الفلسفى الأعظم فى الفلسفة اليونانية القديمة**، والذى قامت عليه الفلسفة الغربية الحديثة، بل والحضارة الغربية كلها. وكان الثلاثة من الفلاسفة المؤلِّهة، وكان أرسطو تلميذًا لأفلاطون، الذى كان تلميذًا لسقراط.=

الكاتب والفيلسوف الكبير ك. س. لويس C.S.Lewis الذى يُعتبر أكبر مناصر للمسيحية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وكان يشتبك فى حوارات ساخنة مع الملاحدة فى لقاءات النادى الأسبوعية، وكانت الغَلَبة سجالًا بين الطرفين.

وعندما سُئلت فى حوار أذيع فى الإذاعة البريطانية BBC عن رفضى لحجج لويس المناصِرة للمسيحية، أجبت بأننى **لم أجد فيها القدر الكافى من الإقناع، خاصة فكرة تجسد الإله فى هيئة بشرية.**

خلال فصلى الدراسى الأخير بجامعة أكسفورد، صدر كتاب «اللغة والحقيقة والمنطق» للفيلسوف ألفريد آير، وكان يؤصل فيه **بدعة الفلسفة الوضعية المنطقية** التى ترى أن **«كل ما لا يمكن رصده لا وجود له»**، ومن ثم فإن كل المقولات الدينية حول الإله واليوم الآخر والأنبياء والرسل و... و... هراء فى هراء، ولا ينبغى طرحها للمناقشة.

أدرك أعضاء نادى سقراط بأكسفورد **سخافة أفكار آير**، التى اعترفَ بتهافتها فيما بعد. ومن ثم، لاقى البحث الوحيد الذى قدمته أمام النادى بعنوان **«زيف علم اللاهوت»**[1] قبولًا

أرسطو Aristotle: (٣٨٤ ق.م. - ٣٢٢ ق.م). من أعظم الفلاسفة عبر العصور، يلقب بالمعلم الأول، وكان أستاذًا للإسكندر الأكبر. إبداعاته فى المجالات العلمية (الفيزياء - الفلك - البيولوجيا) تنافس إبداعاته فى العلوم الإنسانية (الفلسفة ـ السياسة ـ الأخلاق ـ المسرح ـ الموسيقى ـ الإلهيات). وهو واضع أسس القياس فى علم المنطق؛ لذلك عُرف بالقياس الأرسطى. وقد تبنت الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى الأفكار العلمية لأرسطو، ووضعتها فى منزلة مقدسة لا يجوز للعلماء الخروج عنها، وكان ذلك سبب ما واجه جاليليو وغيره من العلماء من اضطهاد.

أفلاطون Plato: (٤٢٨ ق.م - ٣٤٧ ق.م). فيلسوف اليونان العظيم المهتم بالأخلاق والمثل العليا، وقد عبر عما ينبغى أن تكون عليه حياة الناس فى المدينة الفاضلة فى كتابه «الجمهورية». وهو مؤسس أكاديمية أثينا، التى تُعتبر أول مدرسة للدراسات العليا فى الغرب القديم. وله اهتمام بالرياضيات. كما دَوَّن محاوراته مع أستاذه سقراط بأسلوب نقل إلينا أفكارهما، ولولا هذه المحاورات ما نقل التاريخ لنا شيئًا عن سقراط.

سقراط Socrates : (٤٧٠ ق.م - ٣٩٩ ق.م). صاحب إضافة عظيمة للفلسفة، فبعد أن كانت تقتصر على دراسة الأصل المادى للكون والحياة (التراب ـ الماء ـ الهواء ـ النار)، أضاف إليها الاهتمام بالأخلاق والقيم العليا. وله اهتمام كبير بالمنطق وأصول المعرفة. سجل له التاريخ موقفه الشهير عندما حكمت عليه محكمة أثينا بالإعدام عن طريق تجرع السم، بتهمة إفساد عقول الشباب!! فرفض الهرب من السجن بالرغم من الفرصة المتاحة، حتى يعطى الشباب القدوة فى الامتثال لنظام الدولة، التى قَبِل أن يحيا تحت قانونها، ولأنه يؤمن بأن الفيلسوف لا ينبغى أن يخاف من الموت الذى يحرر الروح من سجن الجسد.

(١) التعريف بالبحث فى الفصل القادم.

كبيرًا، فبالرغم من أننى أُؤيد فيه فكرة الإلحاد، فإننى كنت أدعو فيه أيضًا إلى الدخول فى حوارات. واعتُبر بحثى هذا الضربة القاضية للفلسفة الوضعية المنطقية.

خلال فترة وجودى فى أكسفورد (١٩٤٦-١٩٥٠)، ظهر فيها اتجاه فلسفى اعتُبر «ثورة فى الفلسفة»، وأُطلق عليه اصطلاح «**الفلسفة الجديدة**». ومحورها أننا لا نستطيع أن نتفهم الأفكار الفلسفية المختلفة إلا **بدراسة لغوية متعمقة** للكلمات التى تطرح هذه المفاهيم، أى أنها فلسفة تحليلية لغوية. وكان ذلك يعنى ببساطة المزيد من الاهتمام بالمفاهيم اللغوية.

وقد نَشرتُ أبحاثًا حول الفلسفة الجديدة، ضُمَّت فى كتاب باسم «**الفلسفة واللغة** Philosophy and language»، حقق قدرًا لا بأس به من الذيوع، حتى اشتهرت عندما عملت بجامعة أبردين بأسكتلندا بأننى: «**شارح فلسفة أكسفورد اللغوية**».

فى نهاية عام ١٩٥٠، أصبحت **مدرسًا بكنيسة المسيح بأكسفورد**، كما أصبحت **محاضرًا فى فلسفة الأخلاق بجامعة أبردين** Aberdeen بأسكوتلندا.

وبحلول صيف ١٩٥٤، عُينت أستاذًا للفلسفة بجامعه كيل Keele ببريطانيا، وبقيت هناك سبعة عشر عامًا، ولم أغادرها إلا عندما بدأ تميز هذه الجامعة فى الانحسار.

وفى يناير ١٩٧٢، انتقلت إلى جامعة كالجارى Calgary بكندا ومنها إلى جامعة ريدنج Reading عام ١٩٧٣ حيث بقيت حتى نهاية عام ١٩٨٢.

بعدها، انتقلت إلى جامعة يورك York بتورنتو بكندا لمدة ثلاث سنوات، ثم إلى أوهايو لأعمل بجامعة بولينج جرين Bowling Green لمدة ست سنوات.

محاولات وإحباطات مبكرة

كان اهتمامى **بالشيوعية** من اهتماماتى الفلسفية المبكرة، وقد ظللت لفترة من النشطاء فى الجناح المتطرف فى حزب العمل البريطانى، حتى استقلت منه فى أوائل الخمسينيات.

أعقب ذلك اهتمامى **بالباراسيكولوجى**، حتى إننى كتبت كتابًا سقيمًا فى هذا العلم وأسميته «تناول جديد للبحوث النفسية»[١]. وقد كَفَّرتُ عن هذا التناول السيئ بعد ذلك بعشرات السنين، بكتاب جيد أسميته «قراءة فى المشاكل الفلسفية للباراسيكولوجى»[٢].

(1) A New approach to psychical research.

(2) Readings in the philosophical problems of parapsychology.

ولاهتمامى بالعلاقة بين نظرية التطور **الداروينية والفكر الشيوعى** كتبت فى الستينيات كتاب «أخلاقيات التطور»[١]، ثم كتاب «التطور الداروينى»[٢] فى ثمانينيات القرن العشرين.

وفى الفترة المبكرة نفسها، كنت مهتمًّا بما طَرَحتْه الاكتشافات الفيزيائية الحديثة عن العلاقة بين الفيزياء والعقل، والتى تمخض عنها ظهور فرع من الفلسفة عُرف باسم «**المذهب المثالى Idealism**». وهو نظرية ترى أن **الحقيقة الأساسية للأشياء المادية تكمن داخل العقل، وأنه ليس لهذه الأشياء وجود حقيقى خارج العقل!** بعدها بسنوات بينت فى كتابى «مقدمة للفلسفة الغربية»[٣] أن هذا المذهب المثالى **مدمر للعلم**؛ إذ يعنى أن كل الوجود لا وجود له، ومن ثم تتساقط كل العلوم، بل يصبح العقل نفسه لا وجود له.

ربما لم يُـجِـب هذا السرد لرحلتى العلمية عن تساؤل: لماذا ومتى صرت فيلسوفًا؟

وهو سؤال لا أملك له إجابة محددة.

يمكن باختصار القول: إن اهتمامى بالفلسفة بدأ منذ وجودى فى مدرسة كنجزوود، وإننى كنت أقرب ما أكون من الفلسفة عندما كنت أحضر لقاءات نادى سقراط بأكسفورد. وربما كان اختيارى للدراسات العليا تحت إشراف جلبرت رايل هو نقطة التحول فى حياتى إلى احتراف الفلسفة، وهى النقطة التى حرقت عندها مراكبى مع التخصصات الأخرى.

(1) Evolutionary Ethics.

(2) Darwanian Evolution.

(3) An Introduction to western philosophy.

الفصل الثانى

ثمار شجرة الإلحاد

بدأ اهتمامى بالفلسفة يتخذ شكلًا أكاديميًّا منذ ظهور بحث «زيف علم اللاهوت». وعلى مدى نصف قرن من الزمان، نشرتُ قُرابة خمسة وثلاثين مجلدًا فى مختلف فروع الفلسفة.

كانت فلسفة الإلهيات أكثر فروع الفلسفة إثارة لاهتمامى، كما كتبت فى فلسفة اللغة والمنطق والأخلاق والاجتماع والسياسة والتعليم. وكتبت كذلك حول قضايا حرية الإرادة والباراسيكولوجى والحياة بعد الموت وغيرها.

سأتوقف فى هذا الفصل عند أربع محطات، أعتبرها أحجار زاوية فى منظورى الإلحادى فى فلسفة الإلهيات على مدى خمسين عامًا، اعتقدت بعدها أن مفاهيمى الفلسفية قد تشكلت ونضجت وتبلورت واستقرت.

(أ) زيف علم اللاهوت Theology and falsification

ذكرت فى الفصل السابق الملابسات التى أحاطت بعرضى لهذا البحث عام ١٩٥٠ أمام نادى سقراط بأكسفورد. بدأت البحث بعرض الأسباب التى دفعتنى لتبنى الإلحاد فى سن مبكرة، وتدور هذه الأسباب حول نقطتين:

١ - **معضلة الشر والألم** التى تقف عقبة أمام مفهوم «الله محبة - الله الذى لا يقبل الشرور».

٢ - **طلاقة المشيئة الإلهية**، ليست عذرًا كافيًا لصب كل هذه المعاناة على البشر.

وقد أقمت البحث على القاعدة الفلسفية: **لا يمكن قبول ادعاءٍ ما إلا إذا أقمنا الدليل على خطأ كل الأمور التى تعارضه.**

فمثلًا، ادعاء أن الأرض كروية يعارضه أن الأرض تبدو أمامنا مستوية، لذلك ينبغى إقامة الدليل على خطأ هذا التعارض الظاهرى أو تفسيره.

وعند تطبيق هذه القاعدة، للحكم على صحة ادعاء المؤمنين بأن «الله محبة» (أى أن الإله يحبنا)، ينبغى أن ينتفى وجود الشر والمعاناة والألم من حياة البشر، وهذا ليس واقع الأمر.

لِـمَ لا نستنتج من وجود هذه النقائص فى حياتنا أن الإله لا يحبنا، أو أنه ليس هناك إله البتة، خاصة أن المتدينين لم يقدموا حيثيات قاطعة تثبت أن هناك إلـهًا، وأنه يحبنا.

كما أكد البحث على **أهمية تحليل معنى المصطلاحات اللغوية** التى يُعَبِّر بها المؤمنون عن مفاهيمهم الدينية (الفلسفة التحليلية اللغوية).

كان غرضى من هذا الطرح أن أشعل الحوار بين الـمُلحدين والمتدينين، وأن أحث المؤمنين على أن يشرحوا اصطلاحاتهم ومفاهيمهم (مثل: الله محبة، الثالوث، الصليب...) بشكل واضح مفهوم، خاصة مع وجود شواهد قوية تعارض ما يقولون.

وبالرغم من هذا، ادَّعى البعض أننى أتفق مع الفلسفة الوضعية المنطقية التى ترى أن المفاهيم الدينية لا معنى لها ولا ينبغى طرحها للمناقشة، وهذا معنى لم أقصده على الإطلاق. بل إننى أعتبر أن دعوتى للحوار بين الملحدين والمتدينين، وكذلك دعوتى لشرح مصطلحات المؤمنين والرد على ما يواجهها من معارضة، تمثل **الضربة القاضية للفلسفة الوضعية المنطقية.**

حقق هذا البحث ذيوعًا كبيرًا وطُبع عدة طبعات، وأصبح أكثر الدراسات الفلسفية شيوعًا فى القرن العشرين، كما وُصف بأنه «يطرح أفكارًا وحججًا جديدة فى مجال فلسفة الإلحاد»، وأنه «يطرح منهجًا فلسفيًّا جديدًا لدراسة قضية الألوهية».

نتعلم من الاختلاف

أثار بحثى «زيف علم اللاهوت» الكثير من ردود الأفعال التى استمرت لعشرات السنين (وما زالت مستمرة حتى اليوم)، وقد **أعاننى بعضها على أن أصحح بعضًا من مفاهيمى.**

اعترض «ر.م.هير[1] R.M. Hare» (أستاذ فلسفة الأخلاق فى أكسفورد) على التعامل مع المفاهيم الدينية بأسلوب التحليل المنطقى والتدقيق اللغوى، ودعى إلى أن **نفهم الاصطلاحات الدينية فهمًا عامًّا**. ولا أعتقد أن هذا الطرح يعجب المتدينين؛ إذ إنه ينفى إمكانية الإيمان بناءً على أدلة العقل والمنطق.

أما «بازل ميتشل[2] Basil Mitchell»(الذى تَرَأَّس نادى سقراط بعد لويس) فقد اعترض بأنه **لا مانع من أن يوجد فى العقائد الدينية ما يتعارض مع الحقائق الظاهرة**، ذلك لما تنطوى عليه العقائد من غيبيات. ومع ذلك أقر ميتشل بأن المتدينين يُحَوِّلون معتقداتهم إلى صياغات خالية من المعنى.

ويرى «آى. أم. كرمبى I.M. Crombie» (المهتم بفلسفة أفلاطون) أنه ينبغى أن نفهم المصطلحات الدينية فى ظل ثلاثة مفاهيم :

أولًا: **الوجود الإلهى وجود خارق**، يتجاوز كل ما نعرف، لذلك لا ينطبق ما يوصَف به الوجود المخلوق على الإله الخالق.

ثانيًا: بناءً على «أولًا»، فإن **الوجود الإلهى يتجاوز إمكانية الإحاطة والفهم**.

ثالثًا: بناءً على «أولًا وثانيًا»، فإن **الحديث عن الإله ينبغى أن يكون باستخدام لغة المجاز والرموز**.

لذلك **يرفض كرمبى أن نستخدم الفلسفة التحليلية اللغوية**، التى تعتمد على التدقيق فى المعنى اللغوى للألفاظ، لفهم الصياغات الخاصة بالعقائد الدينية.

ويرى «ريبرن هيمبك Rebern Hembek» (أستاذ الفلسفة والدراسات الدينية الفخرى بجامعة واشنطن) أننى وقعت فى ثلاثة أخطاء فى بحثى حين اعتبرت:

أولًا: أن المقصود من أى جملة هو المعنى اللغوى الظاهر لكلماتها، دون **النظر إلى المجاز**.

ثانيًا: أن عدم توافق برهان ما مع معتقَدٍ ما، يعنى أن هذا البرهان يثبت خطأ المعتقد، بينما **ينبغى التفرقة بين عدم التوافق وبين التخطىء**.

ثالثًا: أن المتدينين لا يدركون التناقض بين معضلة الشر ومفهوم أن الله محبة. ويرد بأن **المتدينين يدركون هذا التناقض الظاهرى، ويطرحون العديد من التأويلات لإزالته**.

---

(١) ر.م. هير R.M. Hare: (١٩١٩ – ٢٠٠٢م).

(٢) بازل ميتشل Basil Mitchell: (وُلد عام ١٩١٧) أستاذ الفلسفة الدينية بأكسفورد.

ويرى هيمبك أن خطأى المنهجى الأكبر عند الحكم على مفهوم ما بالخطأ أو الصواب، هو **أننى أنظر إليه نظرة مطلقة دون أخذ الظروف المحيطة فى الاعتبار**.

لا شك أن رأى هيمبك من أصوب ما وُجِّه من نقد إلى بحث «زيف علم اللاهوت»، وقد استفدت منه فى تصحيح منهجى الفلسفى.

(ب) الإله والفلسفة God and philosophy

قمت فى هذا الكتاب بعمل **دراسة منهجية تحليلية للديانة المسيحية**؛ حيث لم أجد فى الكتابات الحديثة تحليلًا معاصرًا للمعتقدات المسيحية، التى يعتبرها المسيحيون مفاهيم بديهية وأساسية.

صدر الكتاب عام ١٩٦٦، وخرجت منه طبعات عديدة كان آخرها عام ٢٠٠٥.

قدمت فى الكتاب **منهجًا للملاحدة للتعامل مع الفكر الدينى**. ولما كانت الدعوة للدين تتم على ثلاث مراحل، ذكرت أن أول ما ينبغى البدء به هو تمحيص مفهوم الإله (الروح، كلى الوجود، كلى العلم)، بعد ذلك يأتى تقييم حجج الدين الطبيعى[١] ثم الرد على دعاوى الوحى الإلهى.

من أجل **تمحيص مفهوم الإله**، ذكرت أن هناك ثلاثة تساؤلات رئيسية ينبغى الإجابة عنها عند تناول قضية الألوهية:

- كيف نُعَرِّف الإله؟
- كيف نَصِف الإله ببعض الصفات التى تتفق مع صفاتنا (مثل الوجود والقدرة والعلم)، بالرغم من دعاوى المتدينين مخالفته التامة للمخلوقات؟
- إذا أقررنا بوجود الإله الخَيِّر، كيف نفسر معضلة الشر والألم؟

(١) الدين الطبيعى Natural Religion: هو إدراك وجود الإله من خلال العقل والعلم والتجربة الحياتية اليومية، بدلًا من الوحى، وإن لم يكن ضروريًّا أن ينكر الوحى. وكان هذا المفهوم شائعًا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ويُستخدم هذا الاصطلاح فى العصر الحديث ليشير إلى ما بين البشر من جميع الأجناس والمِلل من شعور فطرى بوجود الإله.

كانت إجابة المتدينين جاهزة بخصوص السؤال الثانى، وهى **أن وصف الإله يتم بما يُعرف فى علم المنطق بأسلوب المشابهة**، وهو أنه لا يمكننا أن نَصِف الإله إلا بما نعرف من صفات بشرية (موجود، حى، قادر، عليم) مع إدراك أن هناك فوارق كيفية وكمية فى هذه الصفات بين الخالق والمخلوق.

كذلك كانت الإجابة عن التساؤل الثالث جاهزة، وهى **طلاقة الإرادة فى أن يُنزل الإله بالبشر الخير أو الشر، وأن الشر ابتلاء للإنسان يلقى عنه العِوَض فى حياة أخرى بعد الموت.**

أما التساؤل الأول فلم يكن قد أخذ حظه من اهتمام المتدينين من قبل. وقصدت أن أؤكد بهذا التساؤل أنه لا ينبغى مناقشة الأدلة على وجود الإله، قبل أن نكون قادرين على أن نُعَرِّف هذا الإله وندرك معنى أوصافه (مثل الموجود فى كل مكان ولا جسم له).

كان الفيلسوف «ريتشارد سوينبرن[1] Richard Swinburne» من أحكم من تصدى لهذا التساؤل. فأجاب بأن **حقيقة شخص ما تختلف عن جسده وسلوكه، وإذا كان من المستحيل التعرف على حقيقة الإنسان فإن هذا العجز أَوْلَى فى حق الإله.**

كذلك تنبه الفيلسوف الإنجليزى الشهير «فريدريك كوبلستون[2] Frederick Copleston» إلى خطورة تساؤلى، فأجاب بأنه ليس باستطاعة العقل البشرى أن يشير بإصبعه إلى الإله كما يشير إلى فراشة فى متحف للفراشات. وأضاف **أن الإله يتجلى لكل إنسان تبعًا لقدرة الفرد على التسامى خارج إطار الزمان والمكان.**

انتقلت إلى المرحلة الثانية، فأكدت على **أن الأدلة على الوجود الإلهى المستقاة من دقة تصميم الكون ومن فطرية المفاهيم الأخلاقية (حجج الدين الطبيعى) أدلة واهية. ثم انتهيت بأن أكدت أن دعاوى الوحى الإلهى لا تثبت أمام التمحيص المنهجى.**

والآن، أعتبر أن ما أوردت فى كتاب «الإله والفلسفة» من حجج وتساؤلات، منذ أربعين سنة، قد أصبح خطوة على الطريق؛ **إذ تخليت عن معظم ما به من مفاهيم.**

(١) «ريتشارد سوينبرن Richard Swinburne»: بريطانى، وُلد عام ١٩٣٤. شغل منصب أستاذ الفلسفة التحليلية بجامعة أكسفورد، وله اهتمام كبير بفلسفة الأديان، وفلسفة العلم. يُصدر كل عامين أو ثلاثة كتابًا فلسفيًّا عميقًا، بأسلوب يفهمه العامة. ومن أشهر هذه الكتب كتاب Is there a God ? الذى تُرجم إلى أكثر من ١٢ لغة.

(٢) «فريدريك كوبلستون Frederick Copleston» : (١٩٠٧ - ١٩٩٤)، له موسوعة ذات شهرة كبيرة فى تاريخ الفلسفة فى ٩ مجلدات.

(جـ) فرضية الإلحاد The presumption of Atheism

فى هذا الكتاب (صدر عام ١٩٧٦) **وَضَعتُ الكُرَة فى ملعب المتدينين؛ إذ أكدت أن إثبات الوجود الإلهى يقع على عاتق المؤمنين، وأن عليهم أن يطرحوا من الحجج ما يفحم الملاحدة؛** إذ إن «البينة على من ادَّعى». ذلك بعد أن كان المنهج فى فلسفة الأديان يضع على الملاحدة مسئولية إثبات عدم وجود الإله، بدعوى أن الشعور بوجود الإله إحساس فطرى.

لقد قلقل هذا الطرح موقف المتدينين من جذوره، فلم يحدث أن واجه الإيمان بوجود الإله مثل هذا التحدى من قبل.

وذكرت **أن إثبات الوجود الإلهى ينبغى أن يمر بالمراحل التى يمر بها أى افتراض علمى أو فلسفى**، وهى:

١- تعريف مفهوم الإله الذى نطرح إثبات وجوده للبحث.

٢- تحديد كيف تتم دراسة الظاهرة المعروضة للبحث (كل ظاهرة يناسبها منهج خاص).

٣- طرح وتحليل الأدلة التى تشير إلى صدق هذا المفهوم (افتراض وجود الإله).

وكنت مصممًا على التمسك بالنفى حتى يُقَدم الآخرون البرهان على وجود الإله. كنت أطرح هذا المنهج وأنا **أدرك تمامًا أن إثبات أمر ما أصعب كثيرًا من نفيه.**

أتى أقوى اعتراض على ما طالبت به المؤمنين من قِبَل الفيلسوف الأمريكى العظيم **«ألفين** بلانتنجا[١] Alvin Plantinga». لقد أصر على أن **«الإيمان شعور فطرى»**، وأن الاعتقاد فى وجود الإله مثل الاعتقاد فى مفاهيم أساسية أخرى، كالاعتقاد بأن للآخرين عقولًا كعقولنا، والاعتقاد فى صحة حواسنا، والقول بأن الكل أكبر من الجزء،... إننا نؤمن بصحة هذه المفاهيم دون الحاجة إلى أن نسوق الدليل.

أما الفيلسوف «رالف مك أينرنى[٢] Ralph Mc Inerny» فقد تمسك بأن **الانتظام والإعجاز فى بنية الوجود، وثبات قوانين الطبيعة تجعل «القول بوجود خالق بديهة منطقية»، وعلى من ينكر ذلك أن يقدم الدليل.**

(١) ألفين بلانتنجا Alvin Plantinga: وُلد عام ١٩٣٢، ويشغل منصب أستاذ الفلسفة بجامعة نوتردام، وله اهتمام بفلسفة الأديان وأصول المعرفة والغيبيات، وصفته مجلة تايم بأنه فيلسوف الإله.

(٢) رالف مك أينرى Ralph Mc Inerny: أستاذ الفلسفة الأمريكى بجامعة نوتردام (وُلد عام ١٩٢٩). له كتاب فى المسيحية واللاهوت المسيحى وبعض القصص الدينية.

(د) أنا وديفيد هيوم

كنت مهتمًا فى مرحلة من حياتى بدراسة فلسفة «ديفيد هيوم[1] David Hume» (من أعتى فلاسفة الإلحاد)، وكتبت عنه عام ١٩٦١ كتابًا بعنوان: «فلسفة الإيمان عند هيوم Humes philosophy of Belief» عندما كنت متبنيًا الكثير من آرائه، قبل أن أغير قناعاتى فى هذه الآراء.

من أهم القضايا التى تبنيتها ثم غيرت فيها رأيى، كانت **قضية رفض «ارتباط النتيجة بالسبب** Cause and Effect Law». فهيوم يرى أنه إذا كنا نلاحظ أن الماء يغلى عند تسخينه إلى درجة ١٠٠°م، فلا يعنى ذلك وجود علاقة سببية بين التسخين والغليان! ويعتبر أن الأمر مجرد ربط يقوم به العقل نتيجة لتكرار هذا التزامل Assocation. أى أن عقولنا هى التى شكلت من ذلك التزامل قانونًا طبيعيًا، يقول بأن الماء يغلى عند درجة ١٠٠°م.

ويعتبر هيوم أن عقولنا هى التى افترضت كل العلاقات التى نراها فى الوجود من حولنا، **ومن ثَمَّ فلا وجود لأى قوانين تحكم الطبيعة!** لقد صرت الآن أؤمن بأن هذا المفهوم يقضى على كل موضوعية من حولنا، بل يدمر كل العلوم من أساسها.

حرية الإرادة الإنسانية

من مفاهيم هيوم الأخرى التى تبنيتها لفترة، ثم غيرت فيها قناعتى، قضية «حرية الإرادة الإنسانية» (الجبر والاختيار[2]) وهى قضية ذات أهمية قصوى فى الفلسفة وفى جميع الديانات.

---

(١) ديفيد هيوم David Hume: فيلسوف الإلحاد الأسكتلندى الشهير (١٧١١ - ١٧٧٦). رفض هيوم المنزلة الخاصة التى تضع فيها الفلسفة الإنسان، باعتباره خلقًا مميزًا للإله. وأرسى قواعد «الفلسفة الطبيعية» التى تنظر للإنسان من خلال المحسوسات فقط، ومن ثَمَّ يساوى بينه وبين باقى المخلوقات. كما أنه من الرافضين تمامًا لبرهان التصميم. كما كان مهتمًا بفلسفة السياسة والتاريخ، وله كتاب فى تاريخ إنجلترا فى ستة مجلدات.

(٢) الجبر والاختيار: يرى مذهب الجبر أن الإنسان ليس له إرادة حرة، وأنه مجبر (مُسَيَّر) فى كل ما يفعل. ومن ثَمَّ تسقط فكرة الثواب والعقاب فى الحياة الآخرة.

أما مذهب الاختيار فيرى أن لنا إرادة حرة نختار بها بين بدائل مختلفة فى كثير من المواقف. وإن كان ذلك لا يمنع أن الإنسان مُسَيَّر فى بعض الأمور، كالموت والمرض والحوادث.

ففى بداية تشكل قناعاتى الإلحادية اعترضتنى معضلة الشر والألم. وقد أجاب المتدينون على هذه الإشكالية **بأن الله يعطى البشر إرادة حرة، وأن اختياراتهم السيئة هى السبب فى معظم الشرور كالحروب** (وقد أسميتُ رأيهم هذا «دفاع الإرادة الحرة»).

ولكن كيف نفسر **الكوارث الطبيعية**، وكيف نوفِّق بين الإرادة الحرة وبين تَـحَكُّم قوى الطبيعة فى الكثير من اختياراتنا؟

ثم **كيف ينسجم وجود الإرادة الإنسانية الحرة مع طلاقة الإرادة الإلهية**، ومع علم الإله المسبق بأفعالنا (طلاقة العلم الإلهى)؟

ألا يعنى وجود إله مطلق القدرة أنه قادر على أن يخلق فى الإنسان الرغبة فى أن يطيعه هو، مما يعنى أن الإله يجبر الإنسان على الطاعة بالرغم من أنه أعطاه إرادة حرة؟!

فى مرحلة لاحقة أدركت أنه **ينبغى أن نفرق بين معنيين مختلفين تمامًا لكلمة سبب** Cause. فهناك «الأسباب» التى هى نتاج الفعل الإنسانى (**الأسباب الإنسانية**) وهناك الأسباب الخارجة عن الفعل الإنسانى (**الأسباب الطبيعية الفيزيائية**).

يعيننا هذا التقسيم على فهم مبدأ الحتمية[1] Determinis. ولنأخذ ـ على سبيل المثال ـ ظاهرة **كسوف الشمس** التى ترجع لأسباب فيزيائية، هذه الظاهرة الطبيعية حتمية الحدوث إذا وقعت الشمس مع القمر والأرض على خط واحد، وتكون مستحيلة الحدوث إذا لم تتوافر هذه الظروف الطبيعية. وهى مثال جيد للارتباط المباشر بين السبب والنتيجة فى حالة الأسباب الطبيعية الفيزيائية.

أما إذا نظرنا إلى **فعل بشرى**، كالذى يحدث إذا حملتُ إليك خبرًا سارًّا، فإنك قد تحتفى بهذا الخبر فتصيح فرحًا أو تنحنى شكرًا لله، وقد تختار ألا تحتفل الآن بأى أسلوب، إذا كنت مثلًا تجلس فى مكتبة عامة. إذن فإخبارى لك بالخبر لم يكن سببًا حتميًّا، إنه سبب يحث على تبنى فعل ما لكنه لا يُلزم، ويبقى دائمًـا مجال لممارسة الإرادة الإنسانية الحرة.

صرت الآن أميز بين نوعين من الأسباب، **أسباب فيزيائية تتبعها حتمية فيزيائية**، لا يمارس الإنسان معها حرية إرادة. **وأسباب إنسانية نملك تجاهها حرية اختيار**، فرغباتنا ليست ملزمة

(١) الحتمية: مذهب فلسفى يقول بأن أفعال المرء وقراراته واختياراته، وكذلك التغيرات الاجتماعية والطبيعية، إنما هى ثمرة عوامل لا سلطة للمرء عليها، وأن هذه الأمور نتيجة حتمية لمقدمات خارجة عن إرادته.

أو لا يمكن مقاومتها، بل يملك معظمنا القدرة على كبح جماح رغبته فى أن يقوم بفعل ما يتمناه.

وحتى نفهم مجال حرية الفعل الإنسانى، يمكن أن نقارن بين نوعين من الحركة Movings و motions:

فـ Movings: هى الحركة التى يمكن أن تبدأ وأن تُلغى بإرادتنا، كالانتقال من مكان إلى مكان.

وmotions: هى الحركة التى لا يمكن بدايتها أو إلغاؤها قصدًا، كحركة عضلة القلب.

صرت أؤمن بأن الإنسان كائن قادر على الاختيار بين بدائل حقيقية.

صرت أعتقد أن الخطأ الكبير الذى وقع فيه هيوم (وكثيرون غيره) هو تعميم مبدأ حتمية القوانين الفيزيائية وتطبيقه على السلوك الإنسانى؛ إذ يعتقدون أنه ليس فى وسع الإنسان أن يتبنى سلوكًا غير الذى تبناه بالفعل (حتمية السلوك الإنسانى).

ألا تلاحظ هنا تناقضًا جذريًا فى فكر هيوم. لقد أنكر من قبل وجود علاقة بين السبب والنتيجة، بينما يتحدث هنا عن حتمية الأسباب الفيزيائية بل وحتمية الأسباب الإنسانية!!

كيف يقع فيلسوف كبير فى حجم ديفيد هيوم فى هذا التناقض الجذرى المُزرى؟ **إن العيب ليس فى منهج التفكير الفلسفى، ولكن فى قدرة الإنسان على أن يعلن تراجعه عن قناعته،** إذا وصل به التفكير إلى تناقضات لا يمكن الجمع بينها.

لا شك أن هذه هى المشكلة الكبرى عند فلاسفة الإلحاد فى العصر الحديث.

الفصل الثالث

من الإلحاد إلى الشك إلى الإيمان

بعد أن اكتملت قناعاتى الإلحادية التى بلورتها عام ١٩٧٦ فى كتابى «فرضية الإلحاد the presumption of Atheism»، انصرفت إلى مختلف فروع الفلسفة الأخرى وإلى علم الاجتماع وإلى السياسة.

جَدَّ على ذلك اهتمامى بالقفزات العلمية الهائلة، خاصة نظرية الانفجار الكونى الأعظم التى تفسر نشأة الكون، وكذلك اكتشاف تركيب وآلية عمل المادة الوراثية فى الخلايا الحية (جزىء الدنا DNA).

وبالرغم من ذلك، ظل الاهتمام بفلسفة الأديان هو المسيطر على اتجاهاتى الفكرية. ويبدو أن الآخرين صاروا يعتبروننى ممثلًا ومسئولًا عن الفكر الإلحادى، فدُعيت للمشاركة فى الكثير من المناقشات التى كانت تأخذ صورة من ثلاث؛ إما مناظرات عامة أو حوارات محدودة أو مساجلات فى الصحف العامة والمجلات الفلسفية المتخصصة.

أعرض فيما يلى بعض المناظرات المهمة التى قمت بها خلال حياتى الفلسفية الطويلة، والتى تُظهر تراجع موقفى تدريجيًّا عن الإلحاد الصِرف إلى معسكر الشكاكين.

(أ) برهان الرجل الأصلع

وقعت هذه المناظرة (عام ١٩٧٦) فى جامعة ولاية تكساس الشمالية مع الفيلسوف الدينى الكبير «د. توماس وارين[١] Thomas Warren»، واستمرت أربع ليالٍ بدأت فى العشرين من سبتمبر، وحضرها ما بين ٥-٧ آلاف شخص كل ليلة.

اعتمدت حجج د. وارين ضد الإلحاد على **مهاجمة نظرية التطور لداروين**. لذلك سألنى د. وارين إن كنت أؤمن بأنه كان يوجد فى يوم من الأيام كائن نصفه إنسان ونصفه قرد؟ أجبت بأن هذا السؤال مثل السؤال عن متى نعتبر أن إنسانًا ما قد صار أصلعًا. وفَسَّرتُ رَدِّى قائلًا: لا شك أن أستاذى جلبرت رايل كان أصلعًا، إذ كانت رأسه خالية تمامًا من الشعر كقشرة البيضة، أما إذا نظرنا إلى الرجال عندما يتساقط الشعر تدريجيًّا من رءوسهم شعرةً شعرةً، فليس من السهل تحديد متى صار الرجل أصلعَ! **فلا شك أن التطور أمر شديد البطء والتدريج**.

ومن أقوى صياغاتى التى قلتها فى هذه المناظرة، والتى تعكس قناعتى الإلحادية وقتها، قولى:

- إن القول بأن هناك إلهًا، فيه من التضاد كالتضاد فى الحديث عن الأعزب المتزوج أو عن الدائرة المربعة.
- أؤمن بأن الوجود لا بداية له ولا نهاية له، ولم يُطرح علىَّ فى حياتى مبرر عقلى وجيه لأغير قناعتى هذه.
- أؤمن بأن الكائنات الحية قد نشأت تلقائيًّا من المادة غير الحية، على مدى دهور مغرقة فى القدم.
- وبالرغم من الترحاب والضيافة الكريمة التى قوبلْتُ بها، فقد انتهت المناظرة وكل من المتناظِرَين متمسك بموقفه.

(ب) مبارزة رعاة البقر

وقعت هذه المناظرة المهمة فى ولاية تكساس أيضًا عام ١٩٩٨، وحضرها زهاء أربعة آلاف شخص. وكانت المناظرة تشبه المبارزة بالمسدسات بين رعاة البقر فى الغرب الأمريكى، كنا أربعة من الملاحدة فى مواجهة أربعة من كبار الفلاسفة الدينيين.

(١) توماس وارين Thomas Warren: أستاذ الفلسفة فى جامعة نوتردام بالولايات المتحدة (١٩٢٠ - ٢٠٠٠).

تمسك كلٌّ من الطرفين بنفس المنهج: المبدأ القانونى «البينة على من ادَّعى، وليس على من ينكر»[1]. ومن ثَمَّ لم يبذل أى طرف منا جهدًا فى إقناع الآخر بوجهة نظره، واكتفى بإطلاق النار على خصمه!

كانت حجج فريق الملاحدة تعتمد على أن **ادعاء شخص أنه رسول من السماء ليس دليلًا على أن هناك من أرسله**، فقد يكون شعوره هذا أوهامًا وتخيلات، أو كذبًا. وأكدنا أن الأدلة التقليدية على الألوهية قد أصبحت بالية متصدعة.

وقد تَـمَسك مناظرنا الكبير «ألفين بلانتينجو Alvin plantingo» بأن **الإيمان بوجود إله يُعتَبَر شعورًا فطريًّا بديهيًّا، لا يحتاج إلى دليل**، تمامًا كمفاهيم بديهية أخرى مثل أن الكل أكبر من الجزء، ومثل أننا موجودون.

(جـ) تَصَدُّع حائط الصد

يلاحظ المتابع لمناظراتى الثلاث التالية أن حججى وأجوبتى على المؤمنين قد ضعفت قوتها:

١- جَرَت على صفحات المجلات الفلسفية مناظرة مهمة مع الفيلسوف الدينى الكبير «تيرى ميث Terry Miethe»، وقد طرح فيها **برهانًا كونيًّا هائلًا**[2]:

- الكون يحوى موجودات محددة متغيرة.
- هذه الموجودات لا بد لها من موجد.
- لا يمكن التسلسل مع الموجودات التى تحتاج موجد، إلى ما لا نهاية؛ لذلك ينبغى الإقرار بموجد أول لهذه الموجودات.
- هذا الموجد الأول ينبغى أن يكون واحدًا، أزليًّا، حتمى الوجود.

وتنطبق صفات هذا الموجد الأول على مفهوم الإله فى الأديان السماوية.

يقوم هذا البرهان على مفهوم «الموجد واجب الوجود Existential Causality».

(١) البينة على من ادعى، وليس على من ينكر:
The onus of proof lies on the one who affirms، not on the one who denies

(٢) سنطرح البرهان الكونى بتفصيل أكبر فى الفصل الأول من الجزء الثانى.

وبالرغم من وجاهة هذا البرهان فقد رفضته، منطلقًا من **أن الكون فيه من الأسباب المادية ما يلغى الاحتياج إلى موجد من خارجه.**

٢- فى مناظرتى فى ثمانينيات القرن العشرين مع «ريتشارد سوينبرن Retchard Swinburn» أستاذ فلسفة الأديان بأكسفورد (أفضل مدافع عن الإيمان فى العالم الناطق بالإنجليزية)، انطلقت حجج سوينبرن من أن **موجد الكون المادى المحدود لا بد أن يكون غير مادى وأن يكون كلى الوجود**، أجبت سوينبرن بأننى **غير قادر على تصور موجود بهذه الصفات.**

٣- فى مناظرتى عام ١٩٩٨ مع «وليم لين كريج[١] William Lane Craig»، انطلق كريج من أن الكون الذى له بداية وعلى هذا القدر من التنظيم، **يمكن تفسيره على أكمل وجه بوجود إله خالق.** كان جوابى: **إننا يجب أن نقف فى تصور بداية وجود الكون عند الانفجار الكونى الأعظم** The Big Bang، **وأن نعتبر هذا الانفجار هو الحقيقة الأولى. أما برهان التنظيم فقد دفعته بقولى: إن أدق ما فى الكون، وهو الإنسان، يمكن تفسير وجوده وقدراته بالقوانين الطبيعية.**

(د) إرهاصات تصحيح المسار

انقشاع الضباب حول نظرية التطور

تُعَدُّ نظرية التطور[٢] لعالم البيولوجيا الكبير تشارلس دارون (تطور الكائنات الحية نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة) من أهم الحجج التى يستند إليها الملاحدة، لتفسير تنوع الكائنات الحية دون الحاجة إلى وجود إله خالق، لذلك أصبحت هذه النظرية من موضوعات المناظرة المفضلة بين الماديين والمؤمنين.

(١) وليم لين كريج William Lane Craig: أستاذ الفلسفة بجامعة بيولا بكاليفورنيا، ولد عام ١٩٤٩. مهتم بفلسفة الأديان والتاريخ والدين الطبيعى.

(٢) تقوم نظرية التطور على ثلاثة مفاهيم:

الأول: أن الكائنات الحية المختلفة نشأت بالتطور عن كائنات أبسط منها. وتؤكد علوم البيولوجيا هذا المفهوم، بعد أن تراكمت الأدلة العلمية على ذلك، خاصة أدلة علم البيولوجيا الجزئية (الجينات)، بالرغم من وجود بعض الظواهر التى يعجز التطور عن تفسيرها.

والمفهوم الثانى: هو أن التطور يقع نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة، وتؤكد علوم البيولوجيا والإحصاء استحالة قيام الطفرات العشوائية بإحداث تطور إلى كائنات أكفأ وأكثر تعقيدًا.

والمفهوم الثالث: هو أن الصفات الجيدة الجديدة، تُمَرَّر إلى الأجيال التالية عن طريق مبدأ الانتخاب الطبيعى، وهذا المفهوم ثابت بيولوجيًّا.

لذلك صار لزامًا على البيولوجيين قبول فكرة أن الصفات الجديدة التى تؤدى إلى التطور يقف وراءها مصمم ذكى، ولا يمكن أن تكون بسبب الطفرات العشوائية.

فى كتابى «التطور الداروينى»، ذكرت **أن مبدأ «الانتخاب الطبيعى** Natural Selection» (الذى يسمح للكائنات الحية بأن تمرر الطفرات العشوائية الجيدة التى تحدث فى جيناتها إلى الأجيال التالية) **لا يُنشئ فى الكائنات صفات جديدة**، ولكنه يقضى على الطفرات غير الصالحة التى تصيب الكائنات الحية[1].

ومما ساعد على شيوع هذا الخطأ، أن دارون استخدم اصطلاحات مثل: «الانتخاب الطبيعى» و«البقاء للأصلح». **وإذا كان دارون قد تنبه بعد فترة لهذا الخطأ وعدل عن هذه الاصطلاحات إلى اصطلاح «الصيانة الطبيعية Natural Preservation»، إلا أن آخرين - مثل تشارلز دوكنز - التصقوا بالمفاهيم الخاطئة وصمموا على استخدام مصطلحاتها**، ليدعموا بذلك موقفهم الإلحادى، بالرغم من أن دارون لم يكن ملحدًا كما سنبين فى الفصل السادس.

ومن محاولات ريتشارد دوكنز لاستغلال مفهوم التطور لدعم الإلحاد، ما ذكره فى كتابه «الجين الأنانى The selfish gene» حيث يقول: **نحن (وباقى الحيوانات) آلات حية، روبوتات تم برمجتها لتحافظ على جيناتها (الشفرة الوراثية المُمَيِّزة لكل جنس ولكل فرد).**

ويرى دوكنز **أن الكائن الحى الأساسى هو الجين، وأنه يُسَخِّر أجهزة الجسم المختلفة لتدبير أمور حياته، وضمان خلوده عن طريق الانتقال إلى أجيال تالية.**

ومع خطأ هذا المفهوم بيولوجيًا[2]، فإن دوكنز بذلك يضعنا فى مصاف الحيوانات[3] **وينزع عن الإنسان كل خصوصية مَيَّزته** عن غيره من الكائنات وجعلته كائنًا متفردًا.

ويُصر دوكنز على أن أفعالنا وسلوكنا الإنسانى نتاج مباشر لجين واحد أو جينات قليلة، نختلف بها عن الحيوانات وتحدد سلوكنا بشكل حتمى، بالرغم من أنه قد ثبت أن الاتجاهات السلوكية للكائنات إنما هى **نتاج العديد من الجينات، وليس جينًا واحدًا أو جينات قليلة.**

كذلك يصر دوكنز على أن **محاولاتنا لإكساب أبنائنا صفات حميدة لا طائل منها**؛ إذ إننا

(١) هذا هو فهم أنتونى فلو. أما البديهة البيولوجية فهى أن الانتخاب الطبيعى كما يقضى على الطفرات غير الصالحة، فإنه يمرر الصفات الجيدة الجديدة إلى الأجيال التالية.

(٢) إذا كان مفهوم الجين الأنانى صحيحًا (الجين هو الكائن الحى الأساسى، وهدف الحياة هو المحافظة على بقائه) فإن التكاثر أحادى الجنس هو الأفضل؛ إذ يحافظ على الجينات دون تغيير أو تعديل. ومع ذلك فقد نشأ التكاثر ثنائى الجنس (ذكر وأنثى)، كخطوة تطويرية إلى الأفضل، بالرغم من أنه يؤدى إلى تغيرات جذرية فى الجينات الأصلية؛ إذ ينقسم كل جين إلى نصفين ويُضاف إليه نصف جين من الجنس الآخر.

(٣) كان أول من تبنى هذا الطرح «ديسموند موريس Desmond Moris» فى كتابيه «القرد العارى The naked ape» و«حديقة الحيوان البشرية The Human Zoo».

قد وُلدنا أنانيين لا نسعى إلا للحفاظ على أنفسنا وعلى جيناتنا. وهل تستطيع الجينات الأنانية توجيهنا لأن **نسلك سلوكًا يسوده الإيثار وإنكار الذات!** من ذلك ندرك خطأ دوكنز (بيولوجيًّا وتربويًّا) وسوء استغلاله لنظرية التطور.

إن تمحيصى لموقف الملاحدة من نظرية التطور، قد كشف لى عن الكثير من **سوء الفهم المحيط بالنظرية، ونَزَعَ عنها حجيتها كدليل إلحادى**، وسمح لى بتصحيح المسار، والبدء فى الاقتناع بدور المصمم الذكى[1] فى إحداث التطور.

(هـ) ثم أدرت الدفة

ثم جاءت اللحظة الحاسمة، ففاجأت الجميع فى أهم مناظراتى العلنية (عُقدت فى جامعة نيويورك عام ٢٠٠٤)، **بأننى قد صرت أقبل فكرة «الوجود الإلهى»!**، وفسرت ذلك بأن ما أثبته العلم الحديث من تعقيد مذهل فى بنية الكون يشير إلى **وجود مصمم ذكى**. كذلك فإن البحوث الحديثة حول أصل الحياة، وما تَكَشَّفَ من بنية شديدة التعقيد وطريقة أداء مذهلة لجزىء الدنا DNA[2]، يؤكد حتمية وجود المصمم الذكى.

وقد نقلت وكالة أنباء الأسوشيتد برس هذا الخبر إلى أرجاء الأرض مع تعليق صادق طريف: **لا شك أن أعظم الاكتشافات المبهرة للعلم الحديث هو اكتشاف أن هناك إلهًا** .Of all the great discoveries of modern science, the greatest was God

برهان القرد

تقول القاعدة الفلسفية: **إن البرهان الفلسفى يُعتبر متكاملًا إذا اجتمع فيه الدليل على صدق الرأى، مع الدليل على خطأ الرأى المقابل**. لذلك أعجبنى كثيرًا تفنيد العالم «جيرالد شرويدر[3] Gerald Schroeder» فى كتابه «علم الإله Science of God» للدليل الذى يسمونه: «برهان القرد».

---

(١) وصف د. مصطفى محمود هذا المفهوم بقوله، إن حرفًا واحدًا يحل المشكلة، فهو «تطوير» (يقوم به الله ﷻ) وليس «تطور».

(٢) انظر الفصل الثامن، لفهم بنية وآلية عمل جزىء الدنا.

(٣) جيرالد شرويدر Gerald Schroeder : حصل على الدكتوراه فى الفيزياء النووية والكون من MIT بالولايات المتحدة عام ١٩٦٥. وهو من الأسماء البارزة ذات الكلمة المسموعة فى مجال «التصميم الذكى»، وله ثلاثة كتب شهيرة تدور حول هذا المفهوم، وهى :

- Genesis of Big Bang, 1990.
- Science of God, 1997.
- Hidden face of God, 2002

يُشَبِّه القائلون بهذا الرأى إمكانية نشوء الحياة بالصدفة بمجموعة من القِرَدة، تدق باستمرار على لوحة مفاتيح الكمبيوتر Keyboard، ويرون أن القِرَدة يمكن أن تكتب بالصدفة، فى إحدى محاولاتها اللانهائية، قصيدة لشكسبير Sonnet.

يبدأ شرويدر تفنيده بعرض **تجربة أجراها المجلس القومى البريطانى للفنون**، وفيها وضع الباحثون ستة من القِرَدة فى قفص لمدة شهر، وتركوا معها لوحة مفاتيح كمبيوتر، بعد أن دربوهم على دق أزرارها.

كانت النتيجة ٥٠ صفحة مكتوبة، دون كلمة واحدة صحيحة، حتى لو كانت هذه الكلمة من حرف واحد مثل A (لاحظ أنه لا بد من وجود مسافة قبل حرف A ومسافة بعده حتى نعتبره كلمة).

وإذا كانت لوحة المفاتيح تحوى ثلاثين مفتاحًا (٢٦حرفًا + ٤ رموز)، فإن إمكانية الحصول على كلمة من حرف واحد بالصدفة، عند كل محاولة، تصبح ١/ ٣٠×٣٠×٣٠ أى ١/ ٢٧٠٠٠.

بعد ذلك **طَبَّق شرويدر هذه الاحتمالات على قصيدة (سوناتا) لشكسبير**، فخرج بنتائج عَرَضها كالآتى:

اخترت لشكسبير السوناتا التى تبدأ ببيت Shall I Compare thee to a Summer's day، وأحصيت حروفها فوجدتها ٤٨٨ حرفًا. ما هى احتمالية أن نحصل بالطَرْق على أزرار لوحة الكمبيوتر على هذه السوناتا بالصدفة (أى أن تترتب الـ ٤٨٨ حرفًا نفس ترتيبها فى السوناتا)؟ إن الاحتمال هو واحد مقسوم على ٢٦ مضروبة فى نفسها ٤٨٨ مرة، أى $٢٦^{-٤٨٨}$ وهو ما يعادل $١٠^{-٦٩٠}$.

وعندما أحصى العلماء **عدد الجسيمات فى الكون** (إلكترونات، وبروتونات، ونيوترونات) فوجدوها $١٠^{٨٠}$ أى واحد وعلى يمينه ٨٠ صفرًا. معنى ذلك أنه ليس هناك جسيمات تكفى لإجراء المحاولات، وسنحتاج إلى المزيد من الجسيمات بمقدار $١٠^{٦٠٠}$.

وإذا حَوَّلنا مادة الكون كلها إلى رقاقات كمبيوتر Computer Chips، تزن كلٌ منها جزءا من المليون من الجرام، وافترضنا أن كل رقاقة تستطيع أن تجرى المحاولات، بدلًا من القِرَدة،

بسرعة مليون محاولة فى الثانية، نجد أن عدد المحاولات التى تمت منذ نشأة الكون هى $١٠^{٩٠}$ محاولة. أى إنك ستحتاج مرة أخرى كونًا أكبر بمقدار $١٠^{٦٠}$! أو عمرًا أطول للكون بنفس المقدار!.

يقينًا لن نحصل على سوناتا بالصدفة، حتى لو كان الكاتب هو الكمبيوتر وليس القِرَدة.

إن للصدفة قانونًا، فالمتخصصون لم يتركوا كل مدعٍ ينسب إليها ما يشاء، ليستر بها جهله وتهافت أدلته. لقد حدد المتخصصون ما يُعرف «بمقدار الاحتمال الملزِم Universal Probability Bound»، الذى يستحيل بعده تفسير حدوث أمر ما بالصدفة وحدها. ويبلغ هذا الاحتمال $١ : ١٠^{١٥٠}$، فهل يمكن أن يقع بالصدفة أمر احتماله يبلغ $١ : ١٠^{٦٩٠}$ ؟

أخبرت شرويدر بأن طرحه هذا أثبت لى أن **«برهان القِرَدة» لا يعدو إلا أن يكون كومة من النفايات، بالرغم من جرأة من يعرضون هذا البرهان**، ويَدَّعون أن القِرَدة يمكن أن تكتب رواية كاملة لشكسبير، مثل هاملت أو عطيل، أو حتى أعمال شكسبير كلها.

وإذا كان هذا الرأى يعجز عن إثبات إمكانية كتابة سوناتا بالصدفة، فهل سينجح فى تفسير نشأة الحياة بالصدفة من المادة غير الحية ؟!

بهذا العرض لشرويدر **انهار تمامًا البرهان العقلى الذى يستند إليه الملاحدة**. وإذا أضفنا إلى ذلك **قوة البرهان الذى يقدمه التعقيد الهائل فى بنية الكون وفى بنية وآلية عمل جزىء الدنا، اكتمل لدينا البرهان الفلسفى (الدليل على صدق الرأى مع الدليل على خطأ الرأى المقابل) على وجود الإله الحكيم القادر.**

الباب الثانى

اكتشـــاف الإلـــــه

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الرابع

العلم والحكمة

يبدأ أنتونى فلو عرض موقفه الإيمانى الجديد بهذه الحكاية الرمزية:

تَصَوَّر أن بعض رجال قبيلة بدائية وَجدوا على شاطئ جزيرتهم المنعزلة هاتفًا محمولًا يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، أخذ الرجال البدائيون يضغطون على مفاتيح أرقام الهاتف فى تتابعات عشوائية، كانوا فى كل مرة يسمعون ضوضاء مختلفة بأصوات مختلفة، كان تفسيرهم الأول أن هذه الأصوات تأتى من داخل الهاتف.

بعد محاولات عديدة لاحظ بعضهم (علماء القبيلة) أنهم يحصلون على نفس الضوضاء وبنفس الصوت إذا ضغطوا على مفاتيح الهاتف بنفس التتابع، فتوصلوا إلى أن هذا الشىء المُكَوَّن من الزجاج والمعدن، ذا الألوان الزاهية، الذى يُصدر ما يشبه الصوت الإنسانى، يتجاوب مع ما نعطيه من تعليمات.

استدعى حكيم القبيلة علماءَها للتشاور، وأخبرهم أنه قد فكر كثيرًا فيما نقلوه إليه من أخبار، وتوصل إلى أن ما يسمعونه عن طريق هذا الشىء إنما هى أصوات لبشر مثلهم، يعيشون فى مكان بعيد ويتحدثون بلغة مختلفة، وأن هذا الشىء يقوم بالتواصل (بطريقة ما) مع هؤلاء البشر، وطالب الحكيمُ العلماءَ ببذل الجهد من أجل استكشاف وتحقيق فهم أفضل للعالم من حولهم.

ضحك العلماء ساخرين مما توصل إليه الحكيم، وقالوا: انظر، عندما نحطم هذا الشيء سيختفى الصوت، مما يثبت أن هذه التركيبة من الزجاج والمعدن والألوان هى التى تصدر هذا الصوت، ولا شيء غير ذلك. وانهالوا على الهاتف المحمول بصخرة حطمته إلى أشلاء.

تؤكد هذه الحكاية الرمزية **أن مفاهيمنا المُسْبَقة توجه تحليلنا للظواهر وللبراهين والحجج. والصواب أن ندع للبراهين والحجج الجديدة الفرصة لأن تعيد تشكيل مفاهيمنا وآرائنا.** إن تمسكنا بمفاهيمنا السابقة كثيرًا ما يعيقنا عن التفكير فى مفاهيم أرحب عن العالم[1].

كذلك تُظهر الحكاية أن **للحقيقة مستويات معرفية متعددة. فهناك فهم العوام، وفهم العلماء، وفهم الحكماء.** ويتوقف إدراكنا لهذه المستويات على قدرتنا على **الانطلاق بفكرنا دون قيود** من مقدمات ومسلمات خاطئة.

إن هذا هو **نفس الحاجز العقلى الذى واجه زملائى (السابقين) الملاحدة** عندما أعلنت قناعتى بوجود إله، بناءً على ما أظهره العلم الحديث من حقائق. فأخذوا يرددون فى شبه هستيريا (خالية من المنطق والبرهان العلمى أو الفلسفى) مفاهيم تعيقهم عن التفكير الحر وتقف بهم عند مستوى ضحل من الإدراك، مثل:

- لا ينبغى أن نبحث عن تفسير لكيفية وجود الكون، وعلينا أن نقبل فقط **أنه موجود.**
- إذا كان من العسير علينا قبول فكرة وجود خالق للكون، فمن باب أولى لن نقبل فكرة وجود خالق للحياة. ولا مفر أمامنا من التسليم بأن **الحياة قد نشأت ذاتيًا بالصدفة** من المادة غير الحية.

أمام هذه الدعاوى أطرح على الملاحدة سؤالًا مهمًا:

ما الذى تنتظرونه من حيثيات عقلية أو علمية حتى تقبلوا إعادة النظر فى رفضكم لأن يكون هناك عقل ذكى وراء هذا الوجود ؟

---

(١) يفسر هذا **العائق العقلى**: لماذا لاقى نظام المجموعة الشمسية الذى توصل إليه **كوبرنيكوس** ـ والذى يجعل الشمس هى المركز الذى تدور حوله الكواكب التى منها كوكب الأرض ـ معارضة شديدة وحربًا شرسة، من قِبَل المؤمنين **بالنظام البطليموسى** القديم، الذى يرى أن كوكب الأرض هو محور الكون، وأن كل النجوم والكواكب تدور حوله.

عودة الوعى

آن الأوان لأن أطرح عقيدتى حول الإله الخالق، وأطرح أدلتى على ذلك:

لقد صرت على قناعة كاملة بأن **الكون ظهر إلى الوجود** عن طريق خالق ذكى، وأن ما فى الوجود من **قوانين ثابتة متناغمة** تعكس ما يمكن أن نسميه **فِكر الإله**.

كما أؤمن أن **نشأة الحياة والتنوع الهائل للكائنات الحية** لا ينشأ إلا عن **مصدر سماوى**.

لماذا أصبحت هذه قناعتى، بعد أن ظللت ملحدًا لأكثر من نصف قرن؟

إن العلم الحديث يُـجَـلِّى خمسة أبعاد تشير إلى الإله الخالق:

أولًا : الكون له بداية، ونشأ من العدم.

ثانيًـا: أن الطبيعة تسير وفق قوانين ثابتة مترابطة.

ثالثًـا: نشأة الحياة، بكل ما فيها من دقة وغائية[1]، من المادة غير الحية.

رابعـًا: أن الكون، بما فيه من موجودات وقوانين، يهيئ الظروف الـمُثلَى لظهور ومعيشة الإنسان، وهو ما يُعرف بـ «المبدأ البشرى Anthropic Principle».

خامسًا: أن القدرات العليا للعقل البشرى لا يمكن أن تكون نتاجًا مباشرًا للنشاط الكهروكيميائى للمخ.

ليست معطيات العلم الحديث فقط هى التى دفعتنى لتغيير قناعاتى، ولكنى أيضًا **أَعَدْتُ النظر فى البراهين الفلسفية التقليدية التى قادتنى قبلُ إلى الإلحاد**، ثم طَبَّقت نفس القاعدة السقراطية المنهجية التى عشت عليها طوال حياتى الفلسفية:

«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا»، فقادنى البرهان، هذه المرة، إلى الإيمان.

التفكير كفيلسوف: هل أنا فيلسوف أم عالِم؟

قد تسأل : كيف، وأنت الفيلسوف، تخوض فى هذه القضايا العلمية ؟

(١) المقصود بالغائية هنا: أن للحياة معنى وهدفًا وغاية، تتجاوز الحركة المادية المباشرة. وسنناقش مفهوم الغائية بالتفصيل فى الجزء الثانى من الكتاب، الفصل الثانى.

أجيب على هذا التساؤل بطرح سؤال: هل ما أطرحه عليكم فى هذه الفصول علم أم فلسفة؟

عندما ندرس بناء الذرة من جسيمات تحت ذرية (إلكترونات وبروتونات ونيوترونات وكواركات) فنحن نتحدث فى العلم. أما عندما نسأل كيف نشأت هذه الجسميات من عدم، ولماذا؟ فنحن نتحدث فى الفلسفة.

وعندما أعلنت عام ٢٠٠٤، أنه لا يمكن تفسير نشأة الحياة تلقائيًا من المادة غير الحية، فلم أكن أتحدث فى الكيمياء أو الفيزياء أو الوراثة، ولكن كنت أتساءل (كفيلسوف) عن معنى أن يكون الشىء حيًا، وعن علاقة ذلك بالحقائق الكيميائية والفيزيائية والوراثية.

فالفيلسوف هو الذى يخرج من المعلومات العلمية باستنتاجات معرفية. وربما لا يعرف الكثيرون من البيولوجيين عن هذه الاستنتاجات أكثر مما يعرف بائع الآيس كريم عن القواعد التى تحكم البورصة وقوانين السوق الحرة.

أنا لا أعترض على أن يخوض العلماء فى الفلسفة، لكن عليهم أن يُحَصِّلوا الخلفية الفلسفية المناسبة. وعلى كلٍّ، فإن العلماء فلاسفة ضعاف، كما يقول أينشتين.

ولحسن الحظ، فإن علماء القرن العشرين البارزين، قد توصلوا إلى استنتاج فلسفى معرفى هائل، يفسر العديد من الظواهر الطبيعية المحيطة بنا، وهو أن **هذا الكون بما فيه من حياة لا يُنشئه إلا مصمم ذكى.**

ومن ثَمَّ، توصل الكثيرون من العلماء والفلاسفة المعاصرين إلى أنه لا يمكن تفسير الأبعاد الخمسة المشار إليها سابقًا، إلا **بالإقرار بوجود إله حكيم قادر.**

* * *

خاتمة المطاف

اتفق فيما توصلت إليه من صفات للإله مع ما طرحه الفيلسوف الإنجليزى الكبير ديفيد كونواى[1] David Conway، فى كتابه «**العودة إلى الحكمة** The Recovery of Wisdom». ونتفق معًا على **صفات الإله** التى تَوَصَّل إليها الفيلسوف الأكبر والمعلم الأول أرسطو منذ ٢٥ قرنًا من الزمان، والتى يحددها بقوله:

God has the following attributes: immutability, immateriality, ommipotence, omniscience, oneness or indivisibility, perfect goodness and necessary existence.

إله واحد أحد

واجب الوجود

غير مادى - لا يطرأ عليه التغير

مطلق القدرة - مطلق العلم

كامل الخير[2].

ويضيف كونواى قائلًا:

لقد أنجزت الفلسفة مهمتها الأساسية بنجاح عظيم، عندما تَوَصَّلَت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود العقل مطلق العلم ومطلق القدرة، الذى هو الإله الخالق، الذى خلق الكون ليكون مُعَدًّا لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذى هو الإنسان.

ينبغى أن أقر هنا أن توصلى - وكونواى وأرسطو - إلى وجود الإله وصفاته، كان عن طريق العقل، دون الحاجة إلى تدخل يخرق قوانين الطبيعة، من وحى أو معجزات[3] (كما يحدث فى الأديان السماوية). وسنعرض فى الفصول القادمة هذه الأدلة العقلية.

لقد كان توصلى إلى وجود الإله وإلى بعض صفاته، رحلة عقل وليست رحلة إيمان.

---

(١) ديفيد كونواى David Conway: (وُلد عام ١٩٤٧) أستاذ الفلسفة بجامعة ميدل سكس، والمشهور ببراعته فى الفلسفة الكلاسيكية والفلسفة الحديثة على السواء، ومن المؤهة المهتمين بفلسفة الأديان.

(٢) لا شك أن هذا الوصف للإله يتفق تمامًا مع **عقيدة الأديان السماوية المُوَحِّدة**.

(٣) انظر: قصة «حى بن يقظان»، الجزء الثانى، الفصل العاشر من العاشر من الكتاب.

الفصل الخامس

هل يأتى شىء من لا شىء[1] ؟

«كان الثالوث الفلسفى اليونانى العظيم (سقراط - أفلاطون - أرسطو) من المؤمنين بوجود إله خالق للكون، بناءً على الأدلة العقلية، وعندما تصدى أرسطو لمعضلة خلق العالم سقط فى الشَرَك نفسه الذى سقط فيه معظم الفلاسفة السابقين واللاحقين، ألا وهو عدم قدرتهم على تصور أن شيئًا يمكن أن يأتى من لا شىء، أى من العدم.

وللخروج من هذا الشَرَك، اضطر أرسطو إلى القول بموجود قديم غير مُتَشَكِّل (أسماه الهيولى Hioly، وتعنى: الأصل) كان هو المادة الخام التى خلق الإله منها الوجود. وبذلك قال بوجود موجودَيْن قديمين (لا أول لهما)، الإله والهيولى، مما يُعَد شِرْكًا عند المتدينين.

وعندما تصدى أفلوطين[2] (فيلسوف الإسكندرية الكبير) للقضية، رفض القول بقديم آخر مع الإله، وقال بأن الإله قد خلق الوجود من ذاته، ومن ثَمَّ فالوجود كله جزء من الإله، وهذا هو المقصود بوحدة الوجود التى يرفضها بشدة معظم المتدينين».

---

(١) Nothing comes from nothing مقطع من أغنية غنتها جولى آندروز فى فيلم صوت الموسيقى.

(٢) أفلوطين Afloutin=Plotinus: وُلد فى ليكوبوليس فى دلتا مصر عام ٢٠٥م، وتربى وتعلم فى الإسكندرية. ثم سافر إلى الهند لدراسة الفلسفة الهندية، وعاد منها ليعيش فى روما.

وهو فيلسوف صوفى زاهد، استوحى فلسفته من أفلاطون فسُمِّيت الأفلاطونية الحديثة، وعرضها فى كتابه «التاسوعات». اشتهر بنظرية «الفيض»، التى يقول فيها: إن المخلوقات تفيض عن الإله (أسماه المبدأ الأول) دون قصد منه. وقد تأثر التصوف الفلسفى الإسلامى بنظرية الفيض إلى حد كبير.

كون قديم، أم كون له بداية ؟

لا شك أن هذه هى إحدى القضايا المحورية التى تشغل علماء الكونيات والفلاسفة ورجال الدين[1]، لذلك خصصنا لعرضها هذا الفصل.

من أساسيات المنهج العقلى فى الفلسفة، أن ننطلق عند تحليلنا لأى نظام من نقطة بداية لا نطرح لها سببًا ولا نطلب لها تفسيرًا[2].

وقد اعتبر الفلاسفة الملحدون **وجود الكون والقوانين الطبيعية التى تتحكم فيه، هى نقطة البداية التى لا يطلبون لها تفسيرًا عند دراسة كل ما يتعلق بالكون.**

أما الفلاسفة المؤلِّـهة فيعتبرون وجود الإله الخالق لهذا الكون ولقوانينه الطبيعية هى **نقطة البداية التى ليس لها تفسير.** لذلك **لم أكن أَرَ فرقًا منهجيًّا بين طرح المؤمنين وطرح الملاحدة،** فلكليهما نقطة بداية لا يُطلب لها تفسير.

لا .. بل كون له بداية، ونشأ من عدم

كانت هذه تصوراتى قبل أن يطـرح علماء الكونيات نظرية **الانفجار الكونى الأعظـم** Big Bang Theory كأكثر النظريات قبولًا لتفسير بداية خلق الكون. وتؤكد النظرية أن **الكون قد نشأ نتيجة لانفجار هائل حدث فى نقطة تتجاوز كل قوانين الفيزياء المعروفة،** وتسمى هذه النقطة «الـمُـفردة Singularity». لقد ثبت علميًّا أن الكون له بداية ترجع إلى حوالى ١٣,٧ بليون سنة مضت.

لم يقف الأمر عند ذلك، فقد طرح العلم مفهومًا آخر شديد الدلالة، وهو **أن الكون قد نشأ من عدم.** فها هو الفيزيائى إدوارد تريون Edoward Tryon [3] يخبرنا (عام ١٩٧٣) أن

(١) فى كتاب «فرضية الإلحاد» ذهب أنتونى فلو إلى أن الوجود قديم (لا بداية له) وذلك خروجًا من الالتباس وإيثارًا لراحة الدماغ. وفى كتاب «هناك إله»، غَيَّر فلو قناعته.

(٢) إذا طرحنا مثلًا للدراسة (سبب تغير لون طلاء البوتاجاز ناصع البياض إلى اللون البنى)، سنجد أن ذلك يحدث دائمًا مع البوتاجازات المطلية بنوع مُعين من الطلاء، وإذا تأملنا بشكل أعمق سنجد أن عنصر الكبريت الموجود فى نواتج الاحتراق يُكَوِّن مركبًا مع مادة كيميائية موجودة فى الطلاء، وأن هذا المركب هو المسئول عن اللون البنى، ومع مزيد من التعمق سيسلمنا الأمر إلى قوانين النظرية الذرية التى تحكم التفاعلات الكيميائية؛ عندها سنعتبر أن هذه نقطة البداية التى لن نطلب لها تفسيرًا عند دراسة مسألة تغير لون طلاء البوتاجاز.

(٣) إدوارد تريون Edoward Tryon: أستاذ الفيزياء فى جامعة هنتر فى مانهاتن. متخصص فى النظرية النسبية ونظرية الكم.

طاقة الكون عند بدايته كانت صفرًا، ذلك لأن قوة الجاذبية الممسكة بعناصر الكون تُمثَّل بالسالب فى المعادلات الفيزيائية؛ إذ إنها تعمل فى اتجاه معاكس للقوى الأخرى، كالقوة الطاردة المركزية التى تدفع بالإلكترونات بعيدًا عن النواة، وتدفع بالكواكب بعيدًا عن شموسها. كذلك إذا عادلنا الشحنات الموجبة بالشحنات السالبة لذرات الكون أصبحت طاقة الكون صفرًا.

كذلك يؤكد ستيفن هوكنج ومؤسسو فيزياء الكم، أن الفيزياء الحديثة تشير إلى نشأة الكون من عدم.

لا شك أن الفلاسفة الملحدين قد أصيبوا بالإحباط، لقد **قَدَّم العلم الدليل على أمرين شديدى الأهمية:**

الأول : أن للكون بداية، وأنه ليس مُغرقًا فى القدم إلى ما لا نهاية (ليس أزليًّا).

والثانى: أن الكون نشأ من عدم.

وهذا ما حاول الفلاسفة المؤمنون إثباته عقليًّا على مدى مئات السنين.

عندما التقيت لأول مرة (كفيلسوف ملحد) بنظرية الانفجار الكونى الأعظم التى تصدت لتفسير وجود الكون، أدركت أننى أواجه نظرية مختلفة، نظرية **تتمشى مع ما يطرحه سِفْر التكوين «فى البداية، خلق الله السموات والأرض»**. وإذا كان الأمر كذلك، فلم يعد هناك مفر من البحث عمن أحدث هذه البداية.

الفيزيائيون يبحثون عن مخرج

فى البداية، لم يتصور علماء الكونيات الأبعاد الفلسفية والمعرفية الكبيرة وراء نظرية الانفجار الكونى الأعظم التى توصلوا إليها، وعندما أدركوا الموقف بدءوا فى البحث عن **مخرج مادى يفسر كيف كانت بداية نشأة الكون.**

حاول ستيفن هوكنج[1] الخروج من المشكلة فى كتابه «تاريخ موجز للزمن» بأن قال : إذا كان لا مفر من الإقرار بأن للكون بداية، **فلا بأس من القول بكونٍ مكتفٍ بذاته** (أى أنشأ نفسه بنفسه). ما أجملها من مقولة أدبية! وما أبعدها عن الدليل والبرهان العلمى والفلسفى!

(١) للتعريف بعالم الفيزياء الكبير، ستيفن هوكنج: انظر الفصل الأول من الجزء الثانى (ونستكمل الرحلة).

وكمحاولة يائسة يعلن الفيزيائى إدوارد تريون، أنه يمكن تفسير بداية الكون ببساطة بأنه **أحد الأشياء التى يمكن أن تحدث تلقائيًا من وقت لآخر!** هل يكون ذلك آخر ما فى جعبة العلماء الملحدين؟

وأخيرًا، لم يجد هوكنج مفرًا من الإقرار بأنه يستحيل فيزيائيًا معرفة كيف بدأ الانفجار الأعظم.

كذلك **رفض أساطين فيزياء الكم**[1] **اعتبار أن نشأة الكون من عدم كانت نشأة تلقائية.**

إن إثبات أن طاقة الكون كانت صفرًا عند نشأته (وما زالت)، لا يعنى انتفاء الحاجة إلى خالق. كيف تعطى طاقة مقدارها صفر، كل ما فى الوجود من حولنا من بناء وإبهار وجمال؟!

الفلاسفة أيضًا يتملصون!

لم يقبل الفلاسفة الملحدون الإقرار بأن الإله هو الذى خلق الكون، ويبنون رفضهم على تبنيهم لمبدأ التثبت (ما لا نستطيع أن نرصده بحواسنا، لا وجود له). وقد فَنَّدَت مقدمة الكتاب مذهب الفلسفة الوضعية المنطقية، التى ترفض مجرد مناقشة مفهوم «الإله».

ومن أشد المعارضين للبحث عن مصدر لنشأة الكون فيلسوف الإلحاد الشهير ديفيد هيوم. ولا شك أن أهم أخطاء هيوم المنهجية رفضه لمفهوم ارتباط السبب بالنتيجة، واعتبار أن العلاقة بينهما لا تخرج من توافق بالمصادفة، ومن ثَمَّ فلا معنى للبحث عن سبب لنشأة الكون، أو لنشأة أى شىء آخر.

ويستمر الفلاسفة الملحدون فى المماحكة، فيقولون: **إن العدم «شىء» قديم لا أول له، ويرفضون اعتباره «لا شىء»! ويصرون على إمكانية نشأة الطاقة والمادة تلقائيًا من هذا العدم القديم!**[2].

برهان فترة الترك

تصدى ريتشارد سوينبرن (الفيلسوف المؤمن) لادعاءات الملحدين بإعادة طرح ما يُعرف ببرهان «**فترة الترك**»[3]. يقول سوينبرن: إذا كان العدم يمتد إلى ما لا نهاية فى القدم، وإذا كان

(١) لمعرفة فيزياء الكم، والتعرف على علمائها، انظر الفصل السادس.

(٢) فى هذا المفهوم يعتبر الفلاسفة الملحدون العدم شيئًا غير متشكل، كالهيولى الذى خلق الله منه الوجود عند أرسطو.

(٣) يخبرنا سوينبرن أنه استقى برهان فترة الترك من علم الكلام عند المسلمين.

للكون بداية، فلِمَ نشأ الكون فى هذا الوقت الذى نشأ فيه؟ لم تُرك الكون دون نشأة لفترة، ثم حدث فى وقت ما فى الزمن اللانهائى أن خرج الكون للوجود؟ **لا بد أن هناك عاملًا مُرَجِّحًا دفعه للوجود** Inductive factor or creative factor.

المحصلة: إله قديم خلق الكون من عدم

يخبرنا الفيلسوف الكبير جون ليسلى[1] John Leslie **أن المفاهيم الفيزيائية كلها، سواء السائدة الآن أو السائدة وقت الانفجار الكونى الأعظم، لا تتعارض مع القول بإله خلق الكون من عدم.**

وأخيرًا نعود إلى ستيفين هوكنج، فنجده يقول مضطرًّا: «إذا كانت هناك معادلات تشير إلى احتمالية نشأة شىء من لا شىء، **فستظل هذه المعادلات دائمًا فى حاجة إلى مَن ينفخ فيها القدرة على الفعل. فالمعادلات لا تخلق، لكنها تصف الفعل**». ويضيف مضطرًّا (فى حوار أُجرى معه بعد نشر كتاب موجز تاريخ الزمن): «إن توصُلنا لمعادلات تشرح كيف بدأ العالم، لا يعنى أن الإله غير موجود، ولكن **يعنى أنه لم يخلق الكون عشوائيًّا، ولكنه خلقه تبعًا لقوانين**».

(١) جون ليسلى John Leslie: أستاذ فلسفة العلوم فى كندا، من المؤمنين بمفهوم المبدأ البشرى، الذى يرى أن الكون قد أُعد على هيئة تمهد لنشأة الإنسان. أشهر كتبه «العقل المطلق Infinite mind» صدر عام ٢٠٠١.

الفصل السادس

مَن وَضَعَ قوانين الطبيعة ؟
برهان التصميم = البرهان الكونى

لا شك أن من أشهر البراهين وأبسطها، وأدلها على وجود الإله الخالق، هو ما يُعرف «**ببرهان التصميم Design Argument**» أو «**البرهان الكونى Cosmic Argument**». ويعنى ببساطة، **أن دِقة بناء الكون وما عليه الطبيعة من نظام وانتظام، يشير إلى وجود مصمم ذكى**.

وبالرغم من أننى كنت من قبل من المعترضين بشدة على أن دقة التصميم تشير إلى وجود الإله، فإن **إعادة النظر فى البرهان، وفى أسلوب الاستدلال الفلسفى به**، أوصلنى إلى الإقرار بوجود إله حكيم خالق.

ولا شك أن **ما كشفه العلم الحديث من معلومات هائلة فى مجال قوانين الطبيعة ونشأة الكون، وكذلك نشأة الحياة وتنوع الكائنات الحية**، قد أمد هذا البرهان بالكثير من الأدلة (المقدمات)، التى أعانتنى كثيرًا فى الوصول إلى هذا (الاستنتاج).

دلالة قوانين الطبيعة

إذا كنا نُعَرِّف القانون الطبيعى بأنه الانتظام والتناسق فى الطبيعة[١]، فلا شك أن **وجود الانتظام والتناسق (Regularities)** من أهم ما يعطى قوانين الطبيعة دلالتها على وجود المصمم الذكى.

ولكن الأكثر دلالة هو أن هذه القوانين **تشمل الموجودات كلها** (Universal)، وأنها **مترابطة مع بعضها البعض** (Tied together)، وأنه **يمكن التعبير عنها بصياغات رياضية دقيقة** (Math-ematically precise).

والسؤال المحورى هنا هو : **كيف تمت صياغة الطبيعة فى هذه القوانين على هذه الهيئة ؟** لم يجد معظم علماء الفيزياء الكبار إجابة على هذا السؤال، إلا الإقرار بوجود إله خالق حكيم قادر.

هذا الاستنتاج البديهى لم يقل به **علماء الفيزياء الكلاسيكية** كإسحق نيوتن[٢] وجيمس ماكسويل[٣] فقط، لكن الكثيرين من **أساطين الفيزياء الحديثة** يعتقدون أن قوانين الطبيعة هى أفكار الإله الخالق.

ألبرت أينشتين[٤]

لن نجد كبداية لطرح مفاهيم علماء الفيزياء الحديثة الكبار، حول هذه القضية، أفضل من

---

(١) من أمثلة قوانين الطبيعة :
- قانون حفظ الطاقة Law of Conservation of Energy: كمية الطاقة الموجودة فى نظام مغلق ما، تظل ثابتة.
- قانون نيوتن الأول للحركة Newton's first law of motion: يظل الجسم ثابتًا، كما يظل الجسم المتحرك متحركًا، ما لم تؤثر عليه قوة خارجية.

(٢) إسحق نيوتن Isaac Newton : وُلد وعاش بإنجلترا (١٦٤٣ - ١٧٢٧). وهو أحد أكثر الرجال تأثيرًا فى تاريخ البشرية. وهو متعدد المواهب، فهو فيزيائى - رياضى - كيميائى - فلكى - فيلسوف، ويعتبر مؤسس الفيزياء الميكانيكية الكلاسيكية، فقد توصل إلى قوانين نيوتن الثلاثة للحركة، وقانون الجاذبية. كما وضع توصيفًا للكون ساد طوال ثلاثة قرون، وما زال توصيفه مستخدَمًا حتى الآن، بالرغم مما أدخلته عليه النظرية النسبية وفيزياء الكوانتم من تعديل.

(٣) جيمس ماكسويل James Maxwell: فيزيائى ورياضى أسكتلندى (١٨٣١ - ١٨٧٩)، صاحب النظرية الكهرومغناطيسية. مساهمته فى علم الفيزياء تعادل مساهمة إسحق نيوتن وأينشتين.

(٤) ألبرت أينشتين Albert Einstein: صاحب النظرية النسبية، وُلد فى ألمانيا عام ١٨٧٩، ومات فى الولايات المتحدة عام ١٩٥٥، صار اسمه مرادفًا للعبقرية.

فى عام ١٩٠٥، كان أينشتين يعمل موظفًا صغيرًا فى مكتب تسجيل الاختراعات بسويسرا، وفى هذا العام أعلن نظريته الأولى فى النسبية (النسبية الخاصة). ثم عاد إلى ألمانيا ليتدرج فى جامعاتها، ليصبح مديرًا لمعهد الإمبراطور الفلكى، ويضع نظريته فى «النسبية العامة» عام ١٩١٥.

فى عام ١٩٣٣، فر أينشتين إلى الولايات المتحدة، هربًا من الاضطهاد النازى، وحصل على الجنسية الأمريكية، وعمل أستاذًا بجامعاتها حتى وفاته. =

ألبرت أينشتين. **يقول أينشتين : أريد أن أعرف كيف خلق الإله الكون، أريد أن أتعرف على أفكار الإله، والباقى سيكون تفاصيل مُكَمِّلة.**

ويُشَبِّه أينشتين المعرفة الإنسانية عن الكون بطفل صغير داخل مكتبة ضخمة، مليئة بمجلدات كُتبت بلغات عديدة. يدرك الطفل يقينًا أن كُتَّابًا كتبوا هذه الكتب، ولكنه لا يعرف كيف، ولا يفهم اللغات التى كُتبت بها، كما يدرك أن الكتب قد رُصَّت داخل المكتبة بنظام ما لكنه لا يعرفه.

يُشَبِّه أينشتين تصور العقلاء من البشر عن الإله بهذا المثال. يلمسون ما فى الكون من نظام مبهر، ويدركون أنه يتبع قوانين طبيعية رائعة، لكنهم لا يفهمون عنها إلا القليل، ومن ثَمَّ يدركون دون شك أن هناك قوة خفية وراء ذلك كله.

يلخص ماكس جامر Max Jammer أحد أصدقاء أينشتين، فى كتابه «أينشتين والدِّين Einstein and Religion» عقيدة أينشتين فى الإله، قائلًا:

= حصل أينشتين على جائزة نوبل عن وصفه لسلوك المزدوج للضوء (تارة كموجات وتارة كجسيمات)، وليس عن النظرية النسبية.

ومع صعوبة عرض النظرية النسبية بشكل مُبَسَّط، يمكننا أن نقول: إنه تبعًا لهذه النظرية لا يوجد معيار ثابت نستطيع عن طريقة تحديد مكان شىء ما، ولا أن لحدد المسافة بين جسمين تحديدًا مطلقًا، ولا أن لحدد سرعة حركة جسم ما، كما لا يوجد معيار ثابت نستطيع عن طريقه تحديد الفترة الزمنية لوقوع حادثة ما على مستوى الكون كله.

أى إن المكان والزمن والمسافة والحركة والكتلة كلها أمور نسبية، أى تختلف من شخص لآخر، تبعًا لعدة عوامل أهمها: سرعة واتجاه الحركة، فمثلًا:

- إذا كنت داخل قطار يتحرك بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة، وتقذف كرة تنس لأعلى، فإن الكرة ستهبط فى يدك، دون أن تتحرك الكرة للأمام. وإذا نظر إليك رجل يقف خارج القطار، فسيلاحظ أن الكرة تتحرك للأمام بنفس سرعة القطار!.
- إذا تحرك القطار بسرعة مائة ألف كيلومتر فى الساعة، وأنت جالس داخله، فإن الساعة التى فى معصمك ستسجل وقتًا أبطأ من ساعة الرجل الواقف خارج القطار!.
- إذا وقعت حادثة فى أول القطار وحادثة أخرى فى آخر القطار، وشعر الجالس داخل القطار أنهما وقعا فى وقت واحد، فإن الرجل خارج القطار سيشعر أنهما وقعا فى وقتين مختلفين!.

هذا بالطبع يختلف تمامًا عن الفيزياء الكلاسيكية (فيزياء نيوتن)، التى ترى أن المكان والزمن والمسافة والحركة والكتلة كلها أمور مطلقة. ليس معنى ذلك أن النظرية النسبية قد أثبتت خطأ فيزياء نيوتن، ولكن قواعد النظرية النسبية تنطبق فى السرعات الهائلة القريبة من سرعة الضوء.

هل لاحظت قوس قزح Rainbow؟ إن ارتفاع وقطر وألوان قوس قزح الذى تراه عقب يوم ممطر، يختلف عن صفات قوس قزح الذى يراه صديقك الذى يبعد عنك بمسافة مائة متر مثلًا. أى إن لكل منا قوس قزحه الخاص ويجره معه عند حركته، هذه هى النظرية النسبية!!

يرفض أينشتين فكرة الإله المتشخص (كأنه إنسان لكن بغير جسم، وإن كان يتفوق على الإنسان فى صفاته، كيفيًّا وكَمِّيًّا) الذى تنسبه كل ديانة لنفسها، وتعتبره شيخًا لقبيلتها. ولكنه **يؤمن بوجود إله غير مادى، يُظهِر نفسه فى قوانين الطبيعة.**

ويؤمن أينشتين بأن **من يفهم الطبيعة يعرف الإله**، ليس لأن الطبيعة هى الإله (كما يقول الفيلسوف إسبينوزا[1] Spinosa) لكن لأن ما فى الطبيعة من قوانين يشير إلى عقل جبار يقف وراءها. وعلى عقل الإنسان أن يكون شديد التواضع أمام عظمة هذا الإله وحكمته.

إذن **يؤمن أينشتين بخالق مطلق العلم، مطلق القدرة، لا يحده الزمان ولا المكان.** وقد أطلق أينشتين فى كتاباته على الإله أسماء عديدة: «عقل علوى سامٍ»، «الروح العلوى اللامتناهى»، «العقل الفائق».

ومع ذلك فإن الكثيرين من أصحاب الأديان السماوية (اليهود – المسيحيين – المسلمين) **يَدَّعون أن أينشتين هو الأب الروحى للإلحاد**، وذلك لربطه بين الإله والطبيعة. وقد رَوَّجَ لهذا الرأى البيولوجى الملحد ريتشارد دوكنز، وأعلن أن أينشتين يقصد بهذه الصفات التى وصف بها الخالق الطبيعة، وليس الإله![2].

وقد أعلن أينشتين رفضه لفكرتى الإلحاد ووحدة الوجود[3]، بل وأعلن فى العديد من كتاباته ومحاضراته وحوراته عن غضبه وضيقه من أن الملاحدة ينسبونه إلى الإلحاد ليدعموا وجهة نظرهم.

فيزياء الكم (الكوانتم)[4] تقودنا إلى الإله

لم يكن أينشتين الوحيد من علماء الفيزياء الحديثة الكبار الذى ربط بين انتظام قوانين الطبيعة وبين حكمة الإله الخالق، فأساطين فيزياء الكوانتم يُشاركونه الرأى نفسه. ونهتم هنا

(١) إسبينوزا Spinosa: من أشهر الفلاسفة ورجال المنطق الألمان فى القرن السابع عشر (١٦٣٢ – ١٦٧٧). اشتهر بنقضه للتوراة وللدين بصفة عامة، واُعتبرت كتاباته من إرهاصات موجة الشك والإلحاد فى القرن الثامن عشر.

(٢) فى كتاب «وهم الإله The God Delusion».

(٣) انظر هامش ص ٤١.

(٤) **فيزياء الكم Quantum Physics** : تنظر **الفيزياء التقليدية (الكلاسيكية)** إلى المادة باعتبارها مكونة من أجسام يؤثر بعضها فى بعض طبقًا **لقوانين نيوتن**، كما تهتم بدراسة المجالات المغناطيسية والكهربائية من خلال **معادلات ماكسويل**، وتشمل كذلك الفيزياء الحرارية التى تخضع **لقوانين الفيزياء الحرارية الثلاثة**.
والسمة المشتركة بين مجالات الفيزياء الكلاسيكية المختلفة، هى امتثالها **بشكل مطلق** للقوانين الفيزيائية التى=

بعرض رؤيتهم لأن البعض يعتقد خطأً أن فيزياء الكوانتم يمكن أن تفسر نشأة الكون من

=تحكمها، وهو ما يُعرف بالحتمية المطلقة Complete Determinism.

فيزياء الكم:

ظهر علم فيزياء الكم فى بداية القرن العشرين، ونجح فى تفسير العديد من الظواهر التى لم تستطع الفيزياء الكلاسيكية تفسيرها من قبل.

وتشتمل فيزياء الكم (الكوانتم) على مجموعة المبادئ التى تتعامل مع **الأنظمة الفيزيائية الدقيقة**: الجزيئات و الذرات والبروتونات والنيوترونات والإلكترونات والكوارتات وباقى **الجسيمات تحت الذرية**. وتدرس كذلك موجات أنواع الطاقة المختلفة.

ويمكن تلخيص الأفكار الرئيسية التى تمثل أعمدة نظرية الكم (الكوانتم) فى الخمس نقاط التالية :

أولًا: لا تَصدر الطاقة من الجسيمات على هيئة موجات مستمرة الانبعاث، لكنها تخرج على هيئة **دَفقات أو حِزَم** تُسمى كل منها كوانتم Quantum (ماكس بلاك ١٩٠٠). وينطبق السلوك نفسه على الضوء المنبعث من مصدر ضوئى؛ إذ يخرج الضوء على هيئة دفقات من جسيمات مهملة الكتلة تسمى فوتونات Fotons (أينشتين ١٩٠٥).

ثانيًا: **تسلك الجسيمات الصغيرة** (كالإلكترونات الذرات وفوتونات الضوء) بطريقة مزدوجة، فهى تارة تسلك كجسيمات، وتارة تسلك كموجات (أينشتين ١٩٠٥).

كذلك تسلك الموجات سلوكًا مزدوجًا، فهى تارة تسلك كموجات وتارة تسلك كجسيمات (كومتون ١٩٢٣).

وقد جمع نيلز بور (١٨٨٥ - ١٩٦٢) بين المفهومين ووضع «**مبدأ التكاملية**»، الذى ينص على أن هذا السلوك لكل من جسيمات المادة والموجات يكمل بعضهما بعضًا، وهو ما يسمى **ازدواجية الجسيم - الموجة**: Particle - Wave Duality، ولا يمكن استخدام إحدى الهيئتين بشكل منفرد لوصف سلوك المادة أو الإشعاع بشكل كامل.

ومن ثَمَّ فإن طبيعة الشىء تتوقف على رصدك له، فإن استخدمت الأجهزة التى تكتشف الجسيمات فسترصده كجسيم، وإن استخدمت الأجهزة التى تكتشف الموجات فسترصده كموجة. لذلك كان نيلز بور يردد مقولته الشهيرة: **إن الطبيعة الحقيقية للأشياء هى ما نرصده نحن** Nothing is real unless it is observed.

ثالثًا: إذا سقط مائة فوتون (وحدة جسيمات الضوء) على مرآة، فإن حوالى ٩٥٪ منها ستنعكس تجاه أعيننا لنرى الصورة، بينما ستنفذ ٥٪ خلال المرآة. لكن إذا سقط فوتون واحد على المرآة فلن نستطيع أن نجزم هل سينعكس هذا الفوتون أم سيرتد، لكن يمكننا القول أن هناك احتمالًا مقداره ٩٥٪ لأن يرتد واحتمالًا ٥٪ لأن ينفذ.

من المعروف كذلك أن ذرات العناصر المشعة كاليورانيوم، تفقد نصف قدرتها على الإشعاع، وتتحول إلى عناصر خاملة فى فترة أطلق عليها الفيزيائيون «فترة نصف العمر». لكن أى نصف من الذرات هو الذى يتوقف عن الإشعاع، لا نعرف، أقصى ما نستطيع قوله، أن أمام كل ذرة فرصة مقدرها ٥٠٪ لأن تتوقف عن الإشعاع وتتحول لذرة خاملة (ذرة رصاص فى حالة اليورانيوم).

معنى ذلك أننا ندرس سلوك الجسيمات (وكذلك الموجات) بناءً على «احتمالات Probability». (وهذا ما يعرف **بمبدأ الارتياب** Uncertainty Principle للفيزيائى النمساوى فيرنر هايزنبرج). وذلك فى مقابل الحتمية المطلقة التى تتعامل بها الفيزياء الكلاسيكية

رابعًا: إذا افترضنا أننا نستطيع أن نرى إلكترونًا باستخدام ميكروسكوب ضوئى، وحتى يتسنى ذلك لا بد أن يقع فوتون واحد (على الأقل) على الإلكترون لينعكس من خلال الميكروسكوب إلى العين. إن الإلكترون سيمتص جزءًا من طاقة الفوتون فتزداد طاقته، مما يؤدى إلى انتقال الإلكترون إلى مدار آخر، أى أن موضعه سيتغير، وبالتالى لن نستطيع تحديد موقعه الأساسى بدقة.

ومهما حاولنا ابتكار جهاز دقيق لتحديد موضع الإلكترون، فسيكون ذلك على حساب الدقة فى قياس طاقته. والعكس صحيح، فكلما زدنا من دقة قياس طاقة الإلكترون فسيكون ذلك على حساب دقتنا فى تحديد موضعه. أى=

عدم، دون الحاجة إلى إله خالق، كما تمثل رؤية كل منهم جانبًا من العلاقة بين العلم وقضية الألوهية.

يقول فيرنر هيزنبرج[1] Werner Heisenberg صاحب «مبدأ اللاحتمية أو الارتياب Uncertainity Principle»: كنت طوال حياتى مدفوعًا إلى تأمل العلاقة بين العلم والدين، ولم أجد فى أى وقت مهربًا من الإقرار بدلالة العلم على وجود الإله.

ويقول: ما الذى يحكم حركة الإبرة المغناطيسية لتستقر تجاه الشمال والجنوب، إنه نظام مبهر تحكمه قوة حكيمة قادرة، **قوة لو اختفت من الوجود لاجتاحت الجنس البشرى مصائب رهيبة،** مصائب أسوأ من الانفجارات النووية وحروب الإبادة.

ويقول إروين شرودنجر[2] Erwin Shrödinger مؤسس علم «ميكانيكا الموجات»: إن الصورة التى يرسمها العلم للوجود من حولنا، قاصرة للغاية. فبالرغم من الحقائق الكثيرة التى يقدمها لنا ويصيغها فى القوانين التى تحكم الوجود، **يقف العلم كالأبكم أمام الأمور القريبة من قلوبنا والتى تهمنا حقيقةً.**

=إننا **لا نستطيع تحديد موضع الجسيم وقياس طاقته بدقة فى وقت واحد.**

خامسًا: إن عالَم الذرة لا يشابه بتاتًا العالم الظاهرى الذى نحيا فيه.

وهذا ما جعل نيلز بور يقول: إن أى باحث لا تصدمه أفكار نظرية الكم، فهو بالتأكيد لم يفهم هذه النظرية.

ينبغى أن نذكر هنا أن **ألبرت أينشتين** لم يكن مستعدًا على الإطلاق للتسليم بفكرة خضوع سلوك الجسيم للاحتمال الإحصائى، ويرى أن جسيمات العوالم تحت الذرية تلتزم بقوانين فيزيائية تحكم سلوكها. وكان يرى أن مفهوم عدم الحتمية (الارتياب Uncertainity) فى نظرية الكم يرجع إلى وجود ثغرات فى معرفتنا، وأن هذه الثغرات سوف تُسَد فيما بعد، عندما نتوصل للقوانين الفيزيائية النهائية التى تحكم سلوك الجسيمات والموجات.

لذلك اعتبر أينشتين نظرية الكم (لما فيها من احتمالية وارتياب) **نظرية مؤقتة (وليست نهائية) لتفسير الظواهر الذرية،** وكان يردد دائمًا القول الذى ذاع عنه **(أن الإله لا يلعب بالنرد)** God does not play Dice، أى أن الله لا يترك أى شىء للاحتمالات.

ونختم هذا العرض المختصر لمفاهيم نظرية الكم بأن نبين أن حوالى ٣٠٪ من الدخل القومى الأمريكى يأتى من اكتشافات واختراعات أتاحتها فيزياء الكم. ومن هذه الاختراعات، الترانزستور (أهم اختراع تكنولوجى فى القرن العشرين)، أشعة الليزر، الرنين المغناطيسى، الميكروسكوب الإلكترونى، أجهزة الكمبيوتر، شبكات المعلومات Net.

ولا شك أن أسوأ تطبيقات نظرية الكم كان اختراع القنابل الذرية والهيدروجينية، لما سببته وستسببه من بؤس للبشرية.

(١) فيرنر هيزنبرج Werner Heisenberg: عالم ألمانى (١٩٠١ - ١٩٧٦).

(٢) إروين شرودنجر Erwin Shrödinger: عالم نمساوى (١٨٨٧ - ١٩٦١).

لا يقول العلم كلمة حول شعورنا بالانشراح أو الكآبة، ما تثيره فينا الألوان كالأحمر والأزرق، لِـمَ نعتبر هذا المنظر جميلًا أو قبيحًا، كيف نفسر التناسق والانسجام فى الوجود، إن العلم لا يعرف شيئًا عن الخير والشر. إن مثل هذه الأمور لا يفسرها إلا الإقرار بوجود الإله.

ويضيف شرودنجر، أحيانًا يحاول العلماء الماديون الإجابة عن هذه التساؤلات، لكن أجوبتهم تكون من السخف بحيث لا يمكن أخذها بجدية بالمرة. **وكثيرًا ما يوصَم العلم بأنه ملحد، ولا غرابة فى أن يبدو كذلك**، إذ إننا ننزع عنه مفاهيم الجمال والبهجة والخير والشر، وإذا كان العلم المادى ينزَع الإنسان من إنسانيته، فكيف يُقِر بأكثر المفاهيم التى يواجهها العقل البشرى سموًّا.

أما «ماكس بلانك[1] Max Planck» (مؤسس فيزياء الكم) فيقول: **لا يمكن أن نجد تعارضًا حقيقيًّا بين العلم والدين، فكلاهما يُكَمِّل الآخر**. إن كلًّا من الدين والعلم يحارب فى معارك مشتركة لا تكل، ضد الادعاء والشك والتسلط والإلحاد، من أجل الوصول إلى معرفة الإله.

ويقول «بول ديراك[2] Paul Dirac» (من كبار المؤسسين لفيزياء الكم):

إن الإله خالق حسيب، استخدم أرقى مستويات الرياضيات فى تصميم الكون ووضع قوانينه.

مع ستيفن هوكنج

نصل إلى عملاق الفيزياء المعاصر «ستيفن هوكنج[3] Stephen Hawking»، فنقرأ فى خاتمة كتابه «تاريخ موجز للزمن A brief history of time» قوله: إذا توصلنا إلى «النظرية الجامعة[4] Universal theory» فإنها ستُمَكِّن كلًّا من العلماء والفلاسفة، بل والناس

(١) ماكس بلانك Max Planck: عالم ألمانى (١٨٥٨ - ١٩٤٧).

(٢) بول ديراك Paul Dirac: عالم إنجليزى (١٩٠٢ - ١٩٨٤).

(٣) ستيفن هوكنج Stephen Hawking: عالم الفيزياء النظرية والرياضيات التطبيقية البريطانى، يشغل منصب أستاذ الرياضيات الذى كان يشغله إسحق نيوتن بجامعة كمبريدج. وُلد عام ١٩٤٢. وهو مشهور بأبحاثه فى الكون وخاصة الثقوب السوداء. اهتم بتبسيط العلوم للعامة، وقد صار كتابه «تاريخ موجز للزمن» أكثر الكتب العلمية مبيعًا فى التاريخ، فقد بيع منه نسخة لكل ٥٠٠ إنسان على سطح الأرض. وقد أصيب فى بداية شبابه بمرض Amyotrophic lateral Sclerosis أدى إلى شلل تام شمل عضلات العنق والرأس، وهو يتعامل مع المحيطين من خلال أجهزة يوجهها بحركات عينيه وشفتيه!! إذ أفقده المرض القدرة على الكلام.

(٤) النظرية الجامعة : يبحث العلماء عن قوانين ومعادلات مشتركة، يمكن أن تُطبق على القوى الأربع الرئيسية فى الكون. وهى: القوة الكهرومغناطيسية - قوة الجاذبية - القوة النووية القوية - القوة النووية الضعيفة.

العاديين، من فهم بعض الجوانب عن الحكمة من وجود الكون ووجودنا. وإذا عرفنا ذلك فسنكون قد عرفنا كيف يفكر الإله.

وفى موضع آخر من الكتاب يقول: إن النظرية الجامعة ستكون مجموعة من القواعد والمعادلات، والسؤال هو: **من الذى نفخ فى هذه المعادلات المجردة القدرة والحياة ليخرج منها الكون المادى الذى تُوَصِّفه؟**

ويقول «هوكنج» فى أحد حواراته: كلما ازدادت معرفتنا بالكون وبالقوانين المنطقية التى تحكمه، ازداد إدراكنا لما فيه من نظام وانسجام وتناسق.

ويقول: **لا شك أنك تساءلت فى يوم ما عن الحكمة من وجود الكون؟ قد لا تجد إجابة إلا مشيئة الإله**[1].

مع بول ديفيز

حصل «بول ديفيز[2] Paul Davies» على جائزة تمبلتون Templeton Prize[3]، عن دراساته حول العلاقة بين ما فى الطبيعة من منطق وانسجام، وبين قضية الألوهية.

وفى خطابه بمناسبة استلام الجائزة، أدهش ديفيز الحاضرين حين أعلن **أن العلم لن يتجاوز حدًّا معينًا من التقدم إلا إذا أقر بالمفاهيم الدينية.**

وأضاف، إنه بالرغم من أن الملاحدة لا يسألون، من أين أتت قوانين الطبيعة، إلا أنهم جميعًا يقرون بالانتظام فى سلوكها. لذلك يُـخَطِّئ ديفيز الملاحدة فى مفهومين يتمسكون بهما، ويقفان حائلًا بينهم وبين الإيمان:

(١) يصرح هوكنج فى مواضع أخرى بما يشير إلى أنه ملحد لا يؤمن بوجود الإله. وتفسير هذا التناقض، هو أنه عندما يواجه غزارة الأدلة على الإلوهية، يجد نفسه مضطرًا للإقرار بالحقيقة، التى يرفضها تَـمَشِّيًا مع المفاهيم العلمية السائدة.

(٢) بول ديفيز Paul Davies : عالم بريطانى، ولد عام ١٩٤٦.
أستاذ الفيزياء بجامعة أريزونا، وعمل قبلها أستاذًا بجامعات كمبريدج - لندن - نيوكاسل.
متخصص فى علوم الكون وفيزياء الكم.
حصل على جائزة تمبلتون عام ١٩٩٥.

(٣) جائزة تمبلتون Templeton Prize : جائزة تقدمها مؤسسة تمبلتون بالولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٣.
وهى تُقدَّم للأبحاث والاكتشافات العلمية التى تخدم الجوانب الدينية والروحية، بعد أن لاحظ مقدموها أن جائزة نوبل تهمل هذه الجوانب. وتبلغ قيمتها ١,٦ مليون دولار (تزيد عن قيمة جائزة نوبل التى تبلغ ١,٢ مليون دولار).

- **المفهوم الأول**: هو تفسيرهم لانتظام بنية الوجود، بأنه لا يمكن إلا أن يكون كذلك، بما أنه قد وُجد على هذه الهيئة بالفعل! ونجيب عليهم بأن وجودًا أقل انتظامًا وانسجامًا كان يمكن أن يتشكل ويبقى، وهذا هو الأقرب إلى حالة الفوضى التى كانت سائدة عند نشأة الكون. ولكن **لِـمَ ظهر الوجود على الهيئة الأمثل والأعقد والأصعب خَلقًا وبقاءً؟**

- **المفهوم الثانى**: من الحمق الشديد ما يقوله الماديون من أن **قوانين الطبيعة من إنشائنا نحن**، وأنها غير موجودة حقيقة فى الطبيعة. لا أعتقد أن أحدًا من الفيزيائيين يعتقد أن قوانين نيوتن (مثلًا) من إنشاء البشر، لا شك أن قوانين الطبيعة لها وجود حقيقى، ويقف دور العلماء عند اكتشافها وصياغتها وليس اختراعها.

ويطرح ديفيز تساؤلاته المُلِّحة:

- كيف تشكلت قوانين الطبيعة؟
- ولماذا هذه القوانين بالذات وليس سواها؟
- كيف تنشأ الحياة التى تسلك بوعى وعقل وذكاء، من المادة غير الحية؟

ونختم حجج ديفيز بإجابته التى تصك عقول الملاحدة :

إن قوانين الطبيعة قد تشكلت منذ زمن سحيق، لتقوم لاحقًا بوظائف مطلوبة فى وجود لم يكن قد خُلِق بعد[1]، ما أعجب هذا التصميم وهذا القصد؟!

* * *

(١) يُعرف هذا المفهوم «بالمبدأ البشرى»، انظر الفصل القادم.

مع علماء الرياضيات

كذلك حصل «**جون بارو**[1] John Barrow» على جائزة تمبلتون Templeton Prize لدراساته حول برهان التصميم. وفى خطابه عند استلام الجائزة، لفت النظر إلى أن **هذا الوجود بما فيه من تعقيد منقطع النظير فى البنية والأداء، يتبع عددًا قليلًا من القوانين الحكيمة التى يمكن صياغتها بدقة فى معادلات رياضية تشغل ورقة واحدة.**

ويعترض بارو على القائلين بأن قوانين الطبيعة من اختراعنا لنفسر بها الظواهر التى حولنا، بأن نشأة الإنسان وتكاثره (وهو أهم ما يشغلنا) لا يحتاج تفسيره إلى افتراض وجود **أمور شديدة التعقيد، مثل الكواركات والثقوب السوداء، فَلِم اخترع العلماء هذه المفاهيم؟!**

ويشير بارو إلى أن **تاريخ العلم حافل بالنظريات التى حلت محل نظريات سابقة لها.** وبالرغم من أن نظرية النسبية قد خلفت قوانين نيوتن للحركة، إلا أن الأخيرة ستظل تُستخدم لآلاف السنين القادمة. أليس هذا دليلًا على أن لهذه القوانين وجودًا حقيقيًّا، وأنها ليست من تصوراتنا وخلقنا لنستبدلها حين نشاء؟!

مع علماء البيولوجيا

بعد هذه الجولة مع علماء الفيزياء والرياضيات، نقف عند **عالِم البيولوجيا «تشارلس دارون** Charles Darwin» صاحب نظرية التطور الذى اتهم كثيرًا بالإلحاد، عسى أن تُبَرِّئ هذه الكلمات ساحته، وتكون حجة على الملاحدة. يقول داروين فى سيرته الذاتية:

«[Reason tells me of the] extreme difficulty or rather impossibility of conceiving this immense and wonderful universe, including man with his capability of looking far into futurity, as the result of blind chance or necessity. When thus reflecting I feel compelled to look to a First Cause having an intelligent mind in some degree analogous to that of man; and I deserve to be called a Theist».[2]

---

(١) **جون بارو** John Barrow : ولد فى لندن عام ١٩٥٢.
يشغل منصب أستاذ الرياضيات فى جامعة كمبريدج. وله اهتمام خاص بالفيزياء النظرية وفيزياء الكون. حصل على جائزة تمبلتون عام ٢٠٠٦.

(٢) حرصت على إثبات «نص» إقرار دارون فى سيرته الذاتية «أنه من المؤلهة»، وأثبت هنا المصدر بالتحديد. =

«من الصعب جدًّا، بل من المستحيل، أن نتصور أن كونًا هائلًا ككوننا، وبه مخلوق يتمتع بقدراتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ في البداية بمحض الصدفة العمياء، أو لأن الحاجة أم الاختراع. وعندما أبحث حولي عن السبب الأول وراء هذا الوجود، أجدني مدفوعًا إلى القول بمصمم ذكي. ومن ثَمَّ فإني أؤمن بوجود الإله».

* * *

الفلاسفة يكملون مشوار العلماء
الإله خالق القوانين

مُجمل القول، يطرحه «جون فوستر John Foster» أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد، في كتابه «الإله خالق القوانين The Divine Lawmaker»: **إذا أقررنا بوجود قوانين الطبيعة، فإن هذا الانتظام يمكن تفسيره ببساطة وعلى أكمل وجه، بوجود إله حكيم قادر.**

ويُعَلِّق الفيلسوف العظيم ريتشارد سوينبرن على برهان التصميم بقوله: إذا قلنا، مثلًا، أن جميع الأجسام تنجذب لبعضها تبعًا لمعادلة معينة (قانون الجاذبية)، فمن المنطقي والأيسر أن نعتبر أن امتثال جميع الأجسام ينبع من مصدر واحد، بدلًا من افتراض أن كل جسم قد التزم بهذا السلوك مصادفة دون ضابط، وأن الإنسان هو الذي شَكَّل من هذا التشابه العشوائي في سلوك الأجسام قانونًا.

ويتفق سوينبرن مع جون فوستر **بأن أفضل تفسير لهذا النظام هو وجود الإله الحكيم القادر الذي تصفه الأديان السماوية.**

إن العلماء المقرين بحكمة إلهية وراء الكون، لا يقومون بتقديم البراهين من أجل الدفاع عن مفهوم فلسفي، ولكنهم **يُعَبرون عن واقع أظهره العلم الحديث وفرضه على العقول المنطقية المنصفة، بحُجِّية أراها ملزمة وغير قابلة للدحض والتفنيد.**

= Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809 – 1882 ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92 – 3.

الفصل السابع

كونٌ أُعِدَّ لاستقبالنا!

تصور أنك نزلت فى إحدى رحلاتك بأحد الفنادق.

وعندما دخلت غرفتك وجدت أن الصورة المعلقة فوق السرير نسخة مطابقة للصورة التى علقتها منذ سنوات فوق فراشك فى بيتك، كذلك السجادة التى تغطى أرضية الغرفة، بل إنهم يضعون فى المزهرية نوع الزهور نفسه الذى تفضله.

وعلى المنضدة التى فى ركن الغرفة، وجدت الطبعة الأخيرة من ديوان الشعر الذى تفضل القراءة فيه من حين لآخر، كما وجدت الصحيفة التى اعتدت قراءتها يوميًّا.

وداخل الثلاجة، وجدت أنواع المشروبات والشيكولاته التى تحبها، كما أن زجاجة المياه المعدنية من نفس النوع الذى تستخدمه فى وطنك.

وعندما شَغَّلت جهاز التليفزيون، وجدت أن الإرسال الداخلى للفندق يعرض باستمرار الأفلام المفضلة عندك، كما تذيع الإذاعة الداخلية المقطوعات الموسيقية التى تحبها.

وفى الحمام، وجدت الحوائط قد غطيت بالقيشانى من نفس درجة اللون الفيروزى الذى تفضله، كما وجدت على أحد الأرفف نفس الشامبو والصابون اللذين اعتدت على استخدامهما.

obeikan.com

وكلما جُلت ببصرك وجدت حولك تطابقًا بين ما تحبه واعتدت عليه، وبين ما وفَّرته لك إدارة الفندق. لا شك أن احتمال المصادفة يتناقص تدريجيًّا حتى يثبت فى يقينك أن أحدًا قد أَطْلَع إدارة الفندق على تفاصيل حياتك ودقائق رغباتك.

نحن والوجود فى تناغم

يسمى الفلاسفة المفاجآت التى قابلتك فى الفندق، والتى تؤكد أن هناك من يعرفك عن قرب ويعرف أنك قادم إلى الفندق، **ببرهان التناغم Fine tuning argument**.

يصف الفيزيائى الكبير «فريمان ديسون[1] Freeman Dyson» هذا البرهان بقوله: «**كلما ازدادت معارفنا التى تُظهر التطابق بين دقائق بنية الكون وبين احتياجاتنا، ازداد شعورى بأن الكون قد أُعد لاستقبالنا**».

ويُعرَف المفهوم الذى يرى أن الكون قد تم بناؤه على هيئة تجعله ملائمًا تمامًا لنشأة البشر «**بالمبدأ البشرى The anthropic principle**»[2].

سؤال مهم يطرح نفسه، هل يرجع التوافق بين القوانين والثوابت الفيزيائية التى سمحت بظهور الحياة فى كوننا، وبين نشأة ووجود الكائنات الحية إلى الصدفة ؟ لم يعد أحد من الفيزيائيين الكبار يقول بهذا الاحتمال، إذ إنهم **لا يتصورون إمكان حدوث هذا التناغم بهذه الدقة الهائلة فى كون واحد Universe عن طريق المصادفة**.

إذن، ماذا يطرح العلماء ؟

يطرح العلماء بديلين. **إما القول بمصمم ذكى حكيم قادر خالق نَسَّق هذا التوافق بإرادته وقدرته، أو القول بوجود أكوان متعددة Multiverses** سادت فيها ظروف طبيعية مختلفة، وقد حدث أن توافرت فى أحد هذه الأكوان (كوننا هذا) بالصدفة، الظروف المطلوبة لنشأة الحياة.

(١) فريمان ديسون Freeman Dyson : وُلد بإنجلترا عام ١٩٢٣. أستاذ الرياضيات والفيزياء النظرية بالولايات المتحدة، مهتم بالهندسة النووية وفيزياء الكم. حصل على جائزة تمبلتون عام ٢٠٠٠.

(٢) نعرض المبدأ البشرى بالتفصيل فى الفصل الثانى من الجزء الثانى.

منظور الأكوان المتعددة[1]

من أبرز علماء الكونيات المناصرين لفكرة الأكوان المتعددة «مارتن ريز[2] Martin Rees»، تعالوا لنرى ماذا يقول :

من أجل أن يكون أحد الأكوان المتعددة صالحًا لنشأة الحياة، **لا بد أن تتوافر فيه الظروف والقوانين والثوابت الفيزيائية السائدة فى كوكبنا.**

ويرى ريز أن هذه الأكوان المتعددة توجد فى أبعاد زمانية ومكانية مختلفة عن كوننا وعن بعضها البعض، ومن ثَمَّ لن يشعر ساكن أحد هذه الأكوان بالأكوان الأخرى. كذلك قد يؤثر بعض هذه الأكوان فى البعض الآخر وقد لا يؤثر.

ويعرض ريز بعض الآليات التى طرحها الفلكيون لتفسير كيفية نشأة الأكوان المتعددة. من هذه الآليات حدوث «**انفجارات كونية متعددة** Multiple Big Bangs»، نشأ عن كلٍّ منها كون منفصل. ومنها **نظرية الثقوب السوداء المتعددة** التى ينشأ من طاقة كلٍّ منها كون مختلف.

ويشير ريز إلى أن التفسيرات المختلفة لنشأة الأكوان المتعددة تتعارض كثيرًا فيما بينها، وتحتاج لإثباتها أو نفيها إلى تصور قوانين فيزيائية تتعامل مع ثوابت فيزيائية تفوق ملايين المرات الثوابت التى نعرفها، مثل الكثافات الفائقة والأحجام فائقة الكِبَر، وفائقة الصغر، والحرارة الهائلة، والسرعات التى تفوق سرعة الضوء. ويرى أن المزيد من الفهم سيؤدى حتمًا إلى تساقط عدد من هذه البدائل، حتى **قد ينتهى الأمر إلى القول بكون واحد!!**

منظور الأكوان المتعددة فى الميزان

يسخر معظم الفيزيائيين والفلاسفة من منظور الأكوان المتعددة. ونعرض هنا اعتراضات أحد كبار الفيزيائيين وأحد كبار الفلاسفة.

---

(١) طُرح مفهوم «الأكوان المتعددة» لأول مرة كقصة من قصص الخيال العلمى بعنوان Star Maker عام ١٩٧٣. وتنظر القصة إلى الزمن باعتباره نهرًا مستمر الجريان، يحمل العديد من الفقاقيع التى يمثل كل منها كونًا منفصلًا، ظهر من العدم على هيئة نقطة من الطاقة. ويتكون كل كون من هذه الأكوان من مادة مختلفة تخضع لقوانين فيزيائية مختلفة. وقد كانت مادة وقوانين أحد هذه الأكوان مناسبة تمامًا لنشأة حياتنا.

وفى ثمانينيات القرن العشرين وقع البيولوجى F.A. Pantin فى أسر هذا التصور الخيالى، وأخرج منه نظرية علمية يُشَبِّهُنا فيها بمن دخل متجرًا للملابس يوجد به ما لا نهاية له من الموديلات والمقاسات، وقد قام المشترى (الذى هو نحن) باختيار الثوب الذى يناسبه (الذى هو كوننا).

(٢) مارتن ريز Martin Rees: أستاذ الفلك وعالم الكونيات البريطانى، ولد عام ١٩٤٢.

من السهل أن ندعى أننا إذا أَعطينا أحد الأكوان عمرًا أبديًا (لا بداية له) فإنه يمكن أن ينشأ فيه أى شىء خلال هذه الفترة اللامتناهية الهائلة، إن هذا القول لا يمكن قبوله كتفسير لوجود الحياة فى كوننا على الإطلاق.

كذلك إذا لجأنا إلى فيزياء الكوانتم، فإن أحدًا لن يكون قادرًا على إثبات أى شىء أو نفيه، فكله احتمالات. وفى الوقت نفسه، نكون قد ألبسنا الأمر ثوبًا علميًا، بعد أن ألقينا بذور الشك فى عقل وقلب كل إنسان.

إن مثل هذه المقولات الاعتباطية يمكن أن تُستخدم لإثبات أى شىء فى أى مجال، بينما هى فى الحقيقة لم تقدم دليلًا واحدًا على الإطلاق.

ينبغى أن يكون البرهان العلمى مثل طلقة الرصاص، مُحكمة التوجيه إلى هدف محدد. ومن ثم، فإن القول بأكوان متعددة إلى ما لا نهاية من التعدد، وقديمة إلى ما لا نهاية من القدم، من أجل أن تصيب إحداها الظروفُ الملائمة لنشأة الحياة يُعتبر أسلوبًا خطيرًا للغاية؛ إذ يهدم مفهوم البرهان العلمى من أساسه.

إن القول بالأكوان المتعددة التى تصادف أن يكون أحدها صالحًا لنشأة الحياة، يزيد من حجم المشكلة؛ إذ يجعلها حاصل ضرب المشكلة × عدد الأكوان المفتَرَضة. إن ذلك يشبه التلميذ الذى لم يصدق مُدرسه حجته بأن كلبًا قد التهم كراسة واجباته المدرسية، فأجاب التلميذ بأن مجموعة من الكلاب (لا يستطيع إحصاء عددها) هى التى التهمت الكراسة!!

إن القول بأن القوانين المناسبة لنشأة الحياة، قد ظهرت بالمصادفة عندما برد أحد الأكوان بعد الانفجار الكونى الذى أوجده تفسير غير كافٍ. فإن القوانين الفيزيائية الموجودة أثناء تَبَرُّد هذا الكون ينبغى أن تتبع قوانين أعلى، فكيف ظهرت هذه القوانين الأعلى. وستظل هناك دائمًا الحاجة إلى إدراك مصدر القوانين الطبيعية الأعلى ثم الأعلى وهكذا. ومن ثم، فإن منظور الأكوان المتعددة لا يلغى الاحتياج إلى تدخل إلهى.

مع الفلسفة

ويشارك الفيلسوف الكبير «ريتشارد سوينبرن Richard Swinburne» بول ديفيز فى ازدرائه لفرضية الأكوان المتعددة، ويقول: من السفه اللجوء إلى القول بوجود تريليونات من

الأكوان التى ترجع إلى تريليونات من السنين، تفسير وجود الظروف الملائمة لنشأة الحياة فى كون واحد (هو كوننا)، فى الوقت الذى **يمكن أن يفسر القول بوجود واحد (وجود الإله) الأمر كله.**

إن فرضية الأكوان المتعددة التى حدث أن كانت ظروف أَحَدِها مناسبة لنشأة الحياة، لم تجب على نفس السؤال البديهى: **كيف نشأت قوانين هذا الكون المناسب؟**

وإذا رفضنا فرضية الأكوان المتعددة كتفسير لنشأة الحياة فى كوننا، لا يبقى أمامنا إلا أن نُقر بالإله الخالق للكون والحياة، والذى يشير إليه برهان التناغم.

برهان التناغم Fine tunning argument

يقول فيلسوف العلوم، «جون ليسلى John Leslie» (من كبار أنصار المبدأ البشرى) فى كتابه «العقل المطلق Infinite mind»: لا شك أن الكون قد أُعد لنشأة الحياة، عن طريق ضبط دقيق لقوانينه وثوابته الفيزيائية. ولكن ما يبهرنى حقًّا، هو أن **هذا التناغم والتوافق موجود بغزارة تفوق كثيرًا القدر المطلوب لنشأة الحياة.**

الكهرومغناطيسية ... كمثال:

يضرب جون ليسلى مثالًا للتناغم **بالطاقة الكهرومغناطيسية التى تتحكم فى جميع نظم الوجود، من أصغر مكوناته (الذرات) إلى أكبر موجوداته (المجرات[1])**، خاضعة لنفس القوانين (قوانين فيزياء الكم).

على مستوى الذرات، تحافظ الطاقة الكهرومغناطيسية على الإلكترونات فى مداراتها، بحيث لا تنفلت بعيدًا تحت تأثير القوة الطاردة المركزية، وفى الوقت نفسه، لا تغوص داخل نويات الذرات[2]، وينطبق ذلك على جميع الذرات من أصغرها إلى أكبرها.

(١) المجرات Galaxies: بناء كونى مكون من تجمع هائل من النجوم والغبار والغازات والمادة المظلمة، ترتبط معًا بقوى الجذب المتبادلة، وتدور حول مركز مشترك.
يقدر الفلكيون أن هناك ١٠^١٠ إلى ١٠^١٢ مجرة فى الكون المنظور. ويصل قطر المجرات العملاقة إلى ٢/١ مليون سنة ضوئية، وتحتوى على أكثر من ١٠^١٢ نجم. وتقع الشمس فى مجرة درب التبانة.

(٢) تتكون ذرات العناصر من نواة تدور حولها الإلكترونات تحت تأثير القوة الكهرومغناطيسية والقوة الطاردة المركزية. وتتكون النواة من بروتونات ونيوترونات، والكواركات هى وحدة بناء هذه البروتونات والنيوترونات.

كذلك تُـمَكِّن هذه القوة الواحدة، النظم المختلفة شديدة التباين من العمل بكفاءة، ابتداءً من الشفرة الجينية داخل الخلية الحية، إلى الاحتراق داخل نجوم المجرات المختلفة، وانبعاث الطاقة منها على مدى بلايين السنين.

كيف تَسَنَّى لقوة واحدة، تقاس بوحدة لها مقدار واحد ثابت وتخضع لقوانين فيزيائية واحدة، أن تقوم بكل هذه الوظائف المتباينة. ذلك فى الوقت الذى يبدو فيه أن كلًّا من هذه الوظائف يحتاج لمقادير مختلفة وأشكال مختلفة من الطاقة؟

تبقى نقطتان ينبغى ذكرهما بخصوص برهان التناغم:

١- أن القوانين والثوابت الفيزيائية السائدة الآن والتى تسمح **باستمرار الحياة**، لم تكن لتسمح **بنشأة الحياة**. لذلك فإن **هذه النشأة احتاجت لظروف وقوانين أخرى** سادت منذ حوالى أربعة بلايين عامًا.

٢- لو تغيرت بعض القوانين والثوابت الفيزيائية السائدة الآن **لَـمَـا قُدِّر للحياة أن تستمر**.

لقد أُحكمت قوانين الطبيعة بحيث تُعِد الكون ليكون **جاهزًا لنشأة الحياة البشرية، ثم لاستمرارها**.

obeikan.com

الفصل الثامن

كيف نشأت الحياة؟

من المشاكل التى تقابل الفلاسفة عند التعامل مع العلماء الماديين، **قلة إدراكهم للانعكاسات المعرفية لتأويلاتهم المادية**، وربما اعتبروا أننا كفلاسفة نخوض بحارًا لا طاقة لنا بها (البيولوجيا). بينما يرى الفلاسفة أن السؤال عن (كيف يستطيع كون من مادة غير حية غير عاقلة أن يُخرج لنا الحياة العاقلة، والقادرة على التكاثر؟) سؤال فلسفى قبل أن يكون قضية علمية بيولوجية.

سمات الكائن الحى

إذا تأملنا مفهوم الحياة بمنظور فلسفى، وجدنا أن السمة الأساسية المميزة لها أن **للكائنات الحية غرضًا أو هدفًا متأصلًا فى بنيتها (الغائية Teleology)**، هذا الهدف هو المحافظة على وجودها، وهو هدف لم يكن موجودًا فى المادة غير الحية التى نشأت منها. وعندما لاحظ أرسطو الارتباط بين الحياة والغائية، عَرَّف الحياة بأن يكون للشىء غاية فى وجوده.

والسمة الثانية المصاحبة للحياة هى **القدرة على التكاثر**. وبالرغم من أن جميع نظريات نشأة الحياة تنظر إلى التكاثر كأمر بديهى مصاحب للحياة، فإنه يعتبر التكاثر سمة مختلفة تمامًا عن الحياة.

أما السمة الثالثة المرتبطة بالحياة فهى **نظام التشفير Coding System ومعالجة المعلومات Information Processing** الموجود فى جميع أشكال الكائنات الحية. يشرح لنا «ديفيد

بيرلنسكى[1] David Berlinski» (عالِـم الرياضيات) المقصود بهذا النظام، فيقول:

إن نظم التشفير هى نظم تربط بين شيئين أو بين نظامين باستخدام الرموز. من أجل أن نفهم ذلك، فلنتأمل شفرة موريس Morse Code (التلغراف) التى تقوم على خطوات ثلاث: التشفير – نقل المعلومة – فك الشفرة.

فالمرسِل يُـحول حروف الكلمات التى يريد إرسالها إلى رمزين (نقاط وشُرَط)، ويتم التعبير عن جميع الحروف بهذين الرمزين بطريقة رياضية (**عملية التشفير**).

(أ = ـ.ـ ط = ـ.ـ.ـ و = .ـ.ـ وهكذا) ثم يتم تحويل هذه الرموز إلى إشارات كهربائية، **يتم نقلها** عن طريق الأسلاك إلى مكان المستقبِل، الذى يقوم **بفك الشفرة وترجمتها إلى معناها الأصلى Decoding**. إذا قسنا على هذا النظام ما يحدث فى الخلية الحية، وجدنا نفس الخطوات :

فالمعلومات الخاصة بكيفية عمل الخلية، وكذلك صفات الكائن الحى التى سيتم تمريرها إلى الأجيال التالية، تكون محمولة على الجينات التى تتراص بجوار بعضها لتُكَوِّن كروموسومات نواة الخلية. **وتوجد هذه المعلومات فى صورة رمزية**، تستخدم أربعة أحرف[2] تتراص بترتيب رياضى مختلف، لتعبر عن جميع المعلومات التى تحملها نواة الخلية. وتشكل هذه المركبات الكيميائية، الحمض النووى الشهير الذى تتكون منه الكروموسومات، والمعروف باسم الدنا DNA.

ويتم نقل المعلومات من الجينات الموجودة بنواة الخلية إلى أجسام موجودة فى السائل الخلوى خارج النواة، تُعرف باسم الريبوزومات، ويقوم بنقل المعلومات حمض نووى آخر يعرف باسم الرنا RNA (يقابل أسلاك الكهرباء التى تنقل الشفرة فى نظام التلغراف).

وبناءً على المعلومات التى **حملها** الرنا من الدنا إلى الريبوزومات، **تقوم** الأخيرة **بفك الشفرة وفهم محتواها** Translation = Decoding، وتكون الأحماض الأمينية التى يتحد بعضها ببعض لتكوين البروتينات، التى تقوم بمعظم وظائف الخلية.

(١) ديفيد بيرلنسكى David Berlinski : وُلد بنيويورك عام ١٩٤٢. أستاذ الرياضيات وحاصل على الدكتوراه فى الفلسفة. من أعمدة حركة التصميم الذكى.

(٢) هذه الأحرف الأربعة هى ٤ مركبات كيميائية، من مجموعة تُعرف بـ «النيكلوتايدات Nucleotides».

ويوجد هذا النظام للتشفير ومعالجة المعلومات، والذى يستخدم الحمضين النوويين الدنا والرنا DNA، RNA، فى خلايا جميع الكائنات الحية.

يصف «كارل وويز[1] Carl Woese» (رائد دراسات أصل الحياة) نظام التشفير ومعالجة المعلومات بأنه **متعدد الجوانب**، لذلك ينبغى أن نفرق فيه بين:

١ - آلية عمل نظام التشفير (الدنا والرنا والبروتينات)

٢ - مصدر نظام التشفير ومعالجة المعلومات.

٣- علاقة هذه الآلية بالتطور فى الكائنات الحية.

بتأمل هذه الجوانب، نجد أنه إذا أمكننا فهم بنية وآلية عمل الدنا والرنا والبروتينات على أسس مادية، **فإننا لا نكاد نعرف شيئًا عن كيف ومن أين اكتسبت المادة غير الحية آلية التشفير ومعالجة المعلومات، على تعقيدها الشديد المعجز.**

معضلة «التشكيل» Morphogenesis

إن الحياة ليست مجرد تفاعلات كيميائية معقدة تنتهى ببناء البروتينات اللازمة للحياة، وليست فقط اختزان المعلومات والصفات الوراثية ونقلها للأجيال التالية. إن المشكلة الأعقد التى تواجه الماديين بخصوص طبيعة الحياة هى معضلة «التشكيل[2] Morphogenesis».

يرى المفهوم السائد عند الماديين الاختزاليين[3] Reductionists أن «الدنا DNA» (الذى تتكون منه جينات الخلية) مسئول عن كل صفات الكائن الجسمية والنفسية والسلوكية، ولا شك أن هذه النظرة الاختزالية مفجعة فى قصورها؛ إذ ثبت للبيولوجيين أن الدنا، بالآليات التى تم التوصل إليها حتى الآن، يعجز تمامًا عن تشكيل الكائن على هيئته الحقيقة morphogenesis (أى **تحويله من مجرد معلومات إلى وجود حقيقى**).

(١) كارل وويز Carl Woese: أمريكى وُلد عام ١٩٢٨. يعمل أستاذًا للميكروبيولوجيا بجامعة ألينوس بالولايات المتحدة. اكتشف الآركيا Archea كمجموعة منفصلة تمامًا عن البكتريا، ويكونان سويًّا مجموعة الخلايا عديمة النواة Prokaryotes.

(٢) الترجمة الشائعة لاصطلاح Morphogenesis هى «التصوير»، لكننا نعتقد أن الترجمة إلى «تشكيل» أقدر على توصيل المعنى.

(٣) الفكر المادى الاختزالى : انظر الفصل الثامن من الجزء الثانى.

يمكن أن نوضح مفهوم التشكيل بطرح مثال يُقَرِّب لنا الصورة: كيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق نَصِف فيها هيئة إنسان، مهما بلغت تفاصيلها ودقتها، إلى إنسان حقيقى (من لحم ودم)! لقد أصبح من الضرورى الإقرار بأن هناك نظامًا ما «ما زال **مجهولًا**» هو المسئول عن هذا التشكيل. ولكن كيف؟ ما هو هذا النظام؟ ما زال **مجهولًا مُطلَقًا**.

المشكلة متعددة الجوانب

يواجه البيولوجيون والفلاسفة الماديون مأزقًا علميًا فلسفيًا لا يُحسدون عليه، وهو **مأزق ذو جوانب متعددة لم يقدموا تفسيرًا لأىٍّ منها**:

أولًا : **من أين اكتسبت المادة غير الحية الغائية** (أى أن يكون لها هدف وتَوَجُّه) حتى تصبح كائنًا حيًا ؟

ثانيًا : من أين اكتسبت المادة غير الحية (أو حتى المادة الحية الأولية) **القدرة على التكاثر**، هذه القدرة اللازمة لاستمرار الأنواع، وكذلك لترقيها فى سلم التطور؟

ثالثًا : من أين اكتسبت المادة غير الحية **آلية التشفير ومعالجة المعلومات** المميِّزة لجميع الكائنات الحية؟

رابعًا : كيف تتحول المعلومات المكتوبة بالحبر إلى كائنات حية، عملية «التشكيل Morphogenesis».

وحتى نتصور صعوبة الموقف الذى يواجهه الماديون عند تفسير هذه المعضلات، فلنطالع آراء أقطاب البيولوجيا فى العالم :

يقول «آندرو كنول[1] Andrew Knoll» (الأستاذ بجامعة هارفارد):

إذا أردنا تقييم آخر ما توصل إليه العلم حول نشأة الحياة، وجدنا أننا:

١- ما زلنا **لا نعرف متى بدأت الحياة بالتحديد !**

٢- ما زلنا **لا نعرف تحت أى ظروف ظهرت الحياة !**

٣- ما زلنا لا نعرف **كيف بدأت الحياة** على هذا الكوكب !

(١) آندرو كنول Andrew Knoll : ولد عام ١٩٥١، وفى سن الثلاثين تولى منصب أستاذ التاريخ الطبيعى والحفريات بجامعة هارفارد. من أشهر كتبه كتاب «الحياة على كوكب حَدَث: الثلاث بلايين سنة الأولى من الحياة Life on a young planet».

هذا بخصوص الجوانب المادية لنشأة الحياة، فكيف نجيب عن التساؤلات الفلسفية الأعقد منها؟

ويقول عالم الفيزياء النووية «جيرالد شرويدر[١] Gerald Schroeder»: إن مجرد وجود الظروف الملائمة لنشأة الحياة، لا يفسر لنا كيف نشأت. نستطيع أن نقول على أحسن تقدير: إن هذه الظروف «سمحت» بنشأة الحياة على كوكبنا واستمرارها. ولكن **كل قوانين الطبيعة التى نعرفها مجتمعة لا يمكن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية.**

ويجيب «جون مادوكس[٢] John Maddox» رئيس التحرير الفخرى لمجلة الطبيعة Nature عن «تساؤل متى وكيف نشأ التكاثر الجنسى؟»، قائلًا: **لا أدرى.**

ويقول «أنطونيو لازكانو[٣] Antonio Lazcano» (رئيس الجمعية الدولية لدراسة أصل الحياة): من الأمور المنطقية والعلمية التى ينبغى أن نقر بها، أن الحياة ما كانت لتنشأ دون «الآلية الوراثية Genetic mechanism»، تلك الآلية القادرة على اختزان المعلومات ونقلها إلى الأجيال التالية، مع إمكانية حدوث بعض التغيرات فيها (تطور)، **كيف اكتسبت المادة غير الحية هذه الآلية؟ لا ندرى.**

انقشاع الضباب

يُقَربنا عالم الفسيولوجيا الكبير «جورج والد[٤] George Wald» (الحائز جائزة نوبل) من الحقيقة حول أصل الحياة فيقول:

بالرغم من أنها كانت صدمة لتفكيرى العلمى فى البداية، إلا أنه **ينبغى أن أقر بوجود الذكاء والتصميم intelligence and design وراء بناء الكون، حتى يكون ملائمًا لظهور الحياة وتطورها واستمرارها على كوكبنا.** والأعقد من ذلك، **نشأة الحياة نفسها،** ثم خروج

(١) جيرالد شرويدر Gerald Schroeder: أمريكى، حصل على الدكتوراه فى الفيزياء النووية والكونيات عام ١٩٦٥ من MIT. ويعمل أستاذًا بالجامعة العبرية فى القدس. وهو من المهتمين بالعلاقة بين العلم والروحانيات، ومن أشهر كتبه Science of God.

(٢) سير جون مادوكس Sir John Maddox: ولد فى إنجلترا عام ١٩٢٥. تخصص فى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، وبدأ يكتب كمحرر علمى فى مجلة «الطبيعة Nature» منذ سن الثانية والعشرين.

(٣) أنطونيو لازكانو Antonio Lazcano: أستاذ البيولوجيا المكسيكى، ومن أشهر كتبه The orign of life.

(٤) جورج والد George Wald: أمريكى (١٩٠٦ – ١٩٩٧). عمل أستاذًا لوظائف الأعضاء بجامعة هارفارد. حصل على جائزة نوبل عن أبحاثه فى شبكية العين.

الكائنات الحية، التى تتدرج فى الترقى حتى تصل إلى **المخلوق العاقل** القادر على التوصل إلى الاكتشافات العلمية وابتكار الفن والتكنولوجيا وعلى طرح التساؤلات. أما إذا أنكرنا الذكاء والتصميم، وقلنا: إن الحياة قد نشأت بالصدفة، فقد اخترنا التفسير الأصعب.

وهذه هى أيضًا قناعتى: **إن التفسير الوحيد الـمُـرْضى عقلًا لوجود الحياة ذات الغاية، والقادرة على التكاثر والتى تحكمها آلية التشفير هو الإقرار بوجود الإله القديم الحكيم القادر.**

obeikan.com

الفصل التاسع

سقوط الحواجز

بعد أن تَوَصَّلتُ من خلال الفلسفة والعلم إلى حتمية وجود إله خالق للكون، تبقت **مشكلة «تصور» هذا الإله القديم الذى لا بداية له، والذى له من الصفات ما لم نعهده فى كوننا وفى حياتنا.**

سبق أن صرحت فى كتابى «الفلسفة والإله» بعدم قدرتى على تصور «الإله الذى يقول به المتدينون، **بكونه الروح، غير المادى، كلى الوجود** Incorporeal omenipresent spirit». إذ إننا اعتدنا النظر إلى الإنسان باعتباره لحمًا ودمًا (كما يقولون)، **لذلك فإن تصور**: موجود عاقل لا جسم له، يتساوى مع قولك: إنسان ليس إنسانًا. وإذا كان ضروريًّا الحديث عن إنسان لا جسم له، سيكون علينا أولًا أن نعيد تعريف الإنسان.

اكتمال صورة الإله

خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، قاد **الفلاسفة التحليليون**[1] حركة بعث دينى **لإثبات إمكانية ـ بل وحتمية ـ وجود الخالق غير المادى، كلى الوجود، الموجود خارج الزمان وخارج المكان، وركزوا فى براهينهم على التغلب على عقبة العجز عن تصور هذا الإله.**

(١) الفلسفة التحليلية: التحليل: هو فك أو رد الموضوع الذى نتناوله بالبحث إلى مصادره أو عناصره الأولية.
والفلسفة التحليلية: هى عملية تذليل الغموض فى أمر مركب، عن طريق توجيه الانتباه إلى الأجزاء المتعددة التى يتركب منها. وهى من شقين: التحليل المنطقى ومن رواده برتراند راسل، والتحليل اللغوى الذى أشرنا إليه فى الفصل الأول.

obeikan.com

الإله غير المادى

يُعَرِّف «توماس تراسى[1] Tomas Tracy» الموجود العاقل (بشرى أو سماوى) بأنه موجود قادر على التصرف بقصد وإرادة. وإذا كان الإنسان يندرج تحت هذا التعريف، **فإن ذلك لا يعنى أن كل وجود له قصد وإرادة ينبغى أن يكون مجسدًا كالإنسان**. ومن ثَمَّ، **فعدم تَجَسُّد الإله لا يلغى اتصافه بالقصد والإرادة، بل والقدرة على إيجاد جميع الموجودات فى الوجود.**

ويضيف تراسى، أنه إذا كان الإله غير المجسد، حيًّا كلى الإرادة كلى القدرة، **فطبيعى ألا تكون حياته وإرادته وقدرته كحياتنا وإرادتنا وقدرتنا، وكذلك تكون محبته وحكمته وحلمه وباقى صفاته**. وبالرغم من أن هذه النظرة تعيننا على فهم الصفات الإلهية، فما زال فهمنا لهذه الصفات وللذات الإلهية التى وراءها قاصرًا للغاية.

الإله خارج المكان وخارج الزمان

يقول «برين ليفتو[2] Brain Leftow» فى كتابه «الزمن والخلود»: إن مفهوم الإله، الموجود خارج الزمان وخارج المكان، **يتمشى مع نظرية النسبية الخاصة**. فالنسبية الخاصة تنظر إلى الوجود باعتباره رباعى الأبعاد، واعتبار أن الزمن يمثل بعده الرابع[3]، ومن ثَمَّ فالإله الذى لا يحده المكان ينبغى أن يكون خارج الزمان.

ويعيننا إدراكنا لوجود الإله خارج الزمان على التوصل إلى الكثير من صفاته. فوجوده خارج الزمان يعنى أنه لا ينسى، فنحن ننسى ما حدث فى الماضى، والإله لا ماضى عنده. ويعنى ذلك أيضًا أنه لا يتوقف عن الفعل، فالتوقف عن فعل ما يعنى انقضاء زمن هذا الفعل، وهكذا....

---

(١) توماس تراسى Tomas Tracy : أستاذ الديانات بجامعة Bates فى Maine، أشهر كتبه:

God. Action and Embodiment

The God who Acts

(٢) برين ليفتو Brain Leftow : أستاذ فلسفة الأديان فى أكسفورد، خلفًا لريتشارد سوينبرن.
من أشهر مؤلفاته :

Divine Ideas

Necessary being and concept of god

Time and Eternity

Can philosophy Argue god's existance

(٣) الأبعاد الأربعة: ثلاثة أبعاد مكانية، وهى أعلى وأسفل، يمين ويسار، أمام وخلف. ثم الزمن كبعد رابع.

كذلك قولنا بأن الإله خارج الزمان، يعنى أن كل شىء يفعله، فإنه يفعله لحظيًّا at once, in a single act فهو لا يفعل شيئًا قبل شىء، ولكن قد تظهر لنا بعض أفعاله قبل البعض الآخر[1].

فإرادته وفعله فى أن تشرق الشمس، مثلًا، يتبعها أن تشرق اليوم وغدًا وبعد غد وهكذا...

الإله الخَيِّر، ومعضلة الشر والألم ...

لا شك أن **معضلة الشر** والألم (التى كانت وراء اتجاهى إلى الإلحاد) تُعتبر مشكلة لها وزنها عند الفلاسفة. لكننى **أيقنت أن عدم فهم هذه المشكلة لا ينبغى أن يلغى القناعة بوجود الإله،** بعد أن أثبتت البراهين الفلسفية والعقلية والعلمية ذلك الوجود. إن وجود الشر والألم فى حياة البشر **له علاقة بصفات الإله، وليس بوجود الإله أو عدمه.**

وقد أدركت بعضًا من الحكمة بخصوص هذه القضية عندما **أيقنت بتمتع الإنسان بحرية الاختيار** التى تميزه عن الحيوان والنبات والجماد. تلك الحرية التى تسمح لنا أن نقبل أو نرفض فكرة وجود الإله، وأن نسعى لمرضاته أو لا نبالى بذلك، لذلك تَحَتَّم وجود الخير والشر لنختار بينهما.

إن حرية الاختيار سلاح ذو حدين؛ إذ يمكن للإنسان أن يختار الشر، وذلك يتطلب أن نحدد صفات العالَم الذى نعتقد أنه خَيِّر:

ينظر **الماديون** إلى الخير من منظور ما يحققه الأمر من فائدة. فالثراء والسفر السريع عبر القارات وزيادة متوسط عمر الإنسان ينبغى أن تكون من مقاصد الإنسان.

بينما يعتبر **المتدينون** أن الخير هو ما يحقق القرب من الله، ولا يلغى ذلك بالطبع أهمية تحقيق الفائدة.

كذلك تقابل **الفلاسفة** صعوبة كبيرة فى تعريف وتفسير قيم الخير والحق والجمال.

من ذلك نرى **أن معضلة الخير لا تقل صعوبة ـ بل ربما تزيد ـ عن معضلة الشر.**

(١) عبر علماء العقيدة الإسلامية عن ذلك المعنى بقولهم: «أمور يبديها ولا يبتديها».

وينقسم الشر إلى نوعين، نوع من كسب الإنسان، ويعود إلى **ما يشوب النفس البشرية من نقائص**. فالإله ترك المجتمعات لإرادة وفعل واختيار الإنسان، الذى كثيرًا ما يُنزل بأخيه الضُر والأذى والألم.

وهناك شر **لا دخل للإنسان فيه**، كالزلازل والفيضانات والأمراض. وقد أمكننى أن أستوعب وقوع هذه الشرور داخل **منظومة الإله الخَيِّر**، من خلال بعض التفسيرات:

١- أن الطبيعة بها من **القوانين** ما يسمح بحدوث الزلازل والأعاصير وغير ذلك من الكوارث، وفى الوقت نفسه، لا يمكن ترك الطبيعة دون هذه القوانين، وإلا لخضع الوجود للفوضى والعشوائية. أى **أننا نعيش فى إطار السبب والنتيجة لهذه القوانين الطبيعية**.

٢- تدفع هذه التحديات الطبيعية الإنسان إلى بذل الجهد لمواجهتها، مما أدى إلى **ترقٍّ مادى وتقدم حضارى ملحوظ**.

٣- يؤدى ما يواجهه الفرد من هذه الابتلاءات إلى **ترقٍّ روحى وقِيَمى**، نستشعره عند مواجهة المحن.

٤- لا شك أن **منظور الديانات فى الحياة بعد الموت**، وما يحققه صبر الإنسان على الابتلاء من **ثواب وترقٍّ فى الحياة الأخرى**، هو التفسير الأكمل لمعضلة الشر والألم.

وفى النهاية أتساءل، **هل الحياة الخالية من الشر بالشكل الذى نتخيله سترضى الإنسان؟** إن كل تصور وضعه الفلاسفة **للمدينة الفاضلة** يشوبه عدد من النقائص، ويدفع الفلاسفة للبحث عن نمط أفضل.

ثم ماذا بعد ؟

أكرر: إن رحلتى إلى الإله كانت **رحلة عقلية صرفة**. **لقد تتبعت البرهان إلى حيث قادنى**. فقادنى هذه المرَّة إلى الإله الحى المكتفى بذاته، الأزلى الأبدى غير المادى، كلى الوجود، كلى العلم، كلى القدرة.

لذلك ما أحوجنا إلى المزيد من «المعرفة» عن الإله! ثم ما أحوجنا إلى «التواصل» معه.

عودة إلى القصة الرمزية، عن الرجال الذين عثروا على الهاتف المحمول على شاطئ جزيرتهم. إذا كانت القصة قد انتهت برفض العلماء لتأويل حكيم الجزيرة للموقف، ورفضهم لدعوته للبحث والتواصل مع الآخرين، فلنتصور للقصة نهاية أخرى:

تُرى ماذا لو اقتنع العلماء بتأويل حكيم الجزيرة، وَجدُّوا فى البحث عن الأذكياء الذين اخترعوا هذه الآلة؟ ماذا لو هَمَّ بعض العلماء بفك شفرة الأصوات التى استمعوا لها؟ لا شك أن **حياتهم ستكون مختلفة، ونظرتهم للعالم ستكون مختلفة**. سيعرفون أنهم ليسوا وحدهم، بل ربما نجحوا فى التواصل مع هؤلاء الآخرين.

إذا كانت رحلة الفلاسفة العقلية ورحلة العلماء البحثية قد توصلت إلى القول بالإله الحكيم القادر، **فلا مانع عندى من تَقَبُّل فكرة أن يكشف الإله عن نفسه لمخلوقاته من خلال الوحى وإرسال الرسل، إذا وجدت الدليل على ذلك.**

هناك من يقول: إنه قد نجح فى التواصل مع الإله، بينما لم يحدث ذلك لى بعد. ربما يأتى اليوم الذى أسمع فيه من يناديني: «الآن هل تسمعنى؟»!!

obeikan.com

الخاتمة (١)

يقوم الرفض الذى يتبناه المنكرون للإلوهية، منذ قديم الزمان، وحتى ظهور الإلحاد الجديد، على نفس الدعائم والأسس. وبالإضافة إلى ذلك، يعتقد الكثيرون أن الحضارة المادية والعلم الحديث قد قدما صورةً متكاملة للوجود (الكون والحياة والإنسان) ليس للإله فيها مكان.

والحقيقة عكس ذلك؛ فقد طرح العلم، ابتداءً من النصف الثانى للقرن العشرين، عددًا من **الظواهر التى أعجزت الملاحدة**، وأهم هذه الظواهر:

- المنطقية فى بنية وعمل كل ما يحيط بنا فى الوجود Rationality.
- الحياة Life.
- الوعى Consciousness.
- التفكير Thinking.
- إدراكنا لذواتنا The Self.

البراهين قريبة منا

نحن لا نتحدث هنا عن احتمالات وفرضيات، ولكن نتحدث عن **حقائق يؤدى إنكارها إلى الكثير من التضارب فى نظرتنا لأنفسنا وللوجود من حولنا**. لذلك نقول: إن **الإلحاد لا ينشأ عن غياب الشواهد، ولكن ينشأ من رفض الملاحدة لأن يتأملوا أنفسهم والدائرة القريبة المحيطة بهم**.

(١) كتب الخاتمة روى أبراهام فارجيس، وهو الذى كتب أيضًا المقدمة. وهو مؤلف كتاب «أعجوبة الوجود The wonder of the world». والتعريف به فى هامش صفحة رقم (٣٠).

مـن أجـل أن تدرك إلى أى مـدى تكون **الشـواهد على الألوهـية لصـيقة بنـا**، فلتجـر هـذه التجربة:

فكر لدقيقة واحدة فى المنضدة الرخامية المقابلة لك، هل تتصور أنه من الممكن خلال مليار عام أو خلال فترة لا حدود لها، أن تكتسب هذه المنضدة عقلًا يجعلها واعية بها يحيط بها، ومدركة لذاتها على الشكل الذى ندرك به ذواتنا؟ لا شك إننا ببعض المعرفة بطبيعة المادة وقوانينها نجزم باستحالة ذلك.

لكنَّ **للملاحدة رأيًا آخر**. إنهم يعتقدون أن فى لحظة ما من الماضى **دبت الحياة** فى بعضٍ من المادة غير الحية، **ثم أصبحت واعية**، ثم اكتسـبت **القدرة** على أن **تفكر**، وأن تدركَ **ذاتـها**، وتقول: «**أنا**»!

لقد تجمع لدى البشرية خلال الثلاثة قرون الأخيرة، كمٌّ هائلٌ من المعلومات، لم يكن ليخطر على بال أسلافنا، وبعد أن كانت معارفنا القليلة تتضاعف كل مائتى سنة، صارت تتضاعف كل سنة.

من هذه المعارف، التوصل إلى بعض العلاقات بين المادة الوراثية والدوائر المخية العصبية، وبين الحياة والوعى والتفكير وإدراكنا لذواتنا. وبالرغم من أننا أصبحنا نفهم عن الجانب المادى لهذه الظواهر أكثر كثيرًا مما كنا نفهم قبل ذلك، **فإن العلم لم يضف شيئًا بخصوص حقيقة هذه الظواهر الأربع ومصدرها**.

وبالرغم من أن **العلماء الملحدين ينظرون إلى هذه الظواهر باعتبارها نتاجًا مباشرًا للمادة**، إلا أننى لا أتصور أن فهمى لهذا الكتاب، أو إدراكى لمفاهيم كالحرية والعدل والمساواة (مثلًا) ليس إلا نبضات كهربائية.

لا شك أن **الفحوصات الحديثة تُظهر نشاطًا كهربائيًّا** فى بعض مناطق المخ عند ممارسة العمليات العقلية، ولكن اعتبار أن هذا النشاط هو المسئول عن التفكير يشبه تمامًا القول: إن مفهومًا «كالعدالة» مسئولة عنه نقطة الحبر التى كُتِبَت بها هذه الكلمة.

* * *

أولًا: المنطقية Rationality[1]

مَن خَلَق الإله؟

يتساءل الملاحدة: إذا كان الإله قد خلق الوجود، فمَن خلق الإله الذى يقول به المتدينون؟

عندما يطرح الملاحدة هذا التساؤل، فإنهم يتفقون مع المؤمنين فى **أن كل موجود لا بد له من موجد**. لكنهم يتجاهلون أن **الأمر يتسلسل حتى نصل إلى الموجد الأول الذى لا يمكن أن يكون له موجد**. ولحتمية وجود هذا الموجد الأول أطلق عليه الفلاسفة اصطلاح «**واجب الوجود**».

إذن، فالسؤال «**من أَوْجد هذا المُوجِد؟**» **سؤال خطأ من الناحية العقلية**، فقد وصفنا واجب الوجود بأنه الموجد الأول الذى لا موجد له، إنه موجود دائمًا، أى أزلى بلا بداية.

وإذا طرحنا التساؤل بألفاظ أخرى وقلنا، مَن خلق الخالق؟ فسينكشف الخطأ العقلى بشكل أكبر، فنحن لا نتحدث عن مخلوق بل نتحدث عن الخالق الأول.

اختَرْ ...

علينا أن نختار موجودًا قديمًا أزليًا لا مُوجد له، **إما الإله وإما الكون** .

فإذا اخترت **الكون** (كباقى الملاحدة)، عليك أن تقبل بوجود كون مادى أزلى قديم لا موجد له، ولا تسأل لذلك عن تفسير .

أما إذا اخترت **الإله** موجودًا أزليًا، لا نملك لوجوده تفسيرًا، فإنى أرى أن ذلك أمر منطقى، ذلك لمحدودية قدراتنا العقلية وعجزها عن إدراك حقيقة الإله. وليس ذلك بغريب، خاصة وأننا عاجزون عن إدراك حقيقة أنفسنا.

من الإله إلى الوجود ...

بعد أن أدركنا ـ عن طريق المنطق العقلى ـ ضرورة **وجود «واجب الوجود»**، يمكن أن ننتقل إلى مستويات أدنى من المنطقية تتجلى فى الوجود كله.

(١) للمزيد عن هذا المفهوم، انظر الفصل الأول (البرهان الكونى فى الميزان) من الجزء الثانى من الكتاب.

فالكون تحكمه **قوانين الطبيعة المنضبطة**، التى وصف «أنتونى فلو» دلالتها فى الفصل السادس، فمن أين أتت قوانين الطبيعة بهذا الانضباط (المنطقية)؟

مستوى ثالث للمنطقية: إذا نظرنا إلى **آلية التطور** التى أخرجت لنا هذا الكم الهائل من الكائنات الحية، سنجد أن التطور (الذى يحتج به الملاحدة تعسفًا) يحكمه قدر عظيم من المنطقية.

فهناك الشفرة الوراثية القابلة للتعديل، بحيث تسمح بحدوث التطور، وهناك القوانين الطبيعية التى توجه الشفرة الوراثية، وهناك آلية الانتخاب الطبيعى التى تحافظ على الصفات الجديدة الجيدة.

ونصل بالمنطقية إلى مستوى **العقلاء من البشر**، فنراها تصبغ فكرهم وسلوكهم.

إن المنطقية موجودة فى كل جزئية من الوجود، فما مصدرها؟ هل الإله مجرد افتراض اضطررنا للقول به، عندما واجهنا حتمية الإقرار بواجب الوجود، أم تراه حقيقة واقعة هى مصدر كل ما فى الوجود من منطقية؟

الملاحدة يرفضون المنطقية

يطرح الملاحدة عددًا من وجهات النظر، الأقرب إلى السخرية، ليفسروا بنية الكون وما فيه من قوانين طبيعية منطقية.

من هذه التفسيرات ما طرحه الملحد المشاغب الفيزيائى «فيكتور ستينجر[1]»، من أن ما نسميه قوانين الطبيعة لا تحتاج لخالق، وأنها لا تقوم بتوجيه حقيقى لسلوك المادة. إنها تقييدات اضطر الفيزيائيون إلى القول بها عندما حاولوا توصيف سلوك المادة بطريقة رياضية! أى أن **قوانين الطبيعة ليس لها وجود حقيقى وأنها من وضعنا نحن**.

ولاستكمال التهرب من الإقرار بوجود عقل منطقى جبار وراء ما فى قوانين الطبيعة من منطقية، ووراء نشأة الكون من عدم، لجأ ستينجر إلى خداع مارسه الكثير من الفلاسفة القدماء

(١) فيكتور ستينجر Victor Stenger: أستاذ الفيزياء الأمريكى بجامعة هاواى، وُلد عام ١٩٣٥. من المعارضين لمفهوم التصميم الذكى، من أشهر كتبه Not by Design. يؤمن بأن العلم سيتوصل إلى الأصل المادى للعقل الإنسانى، دون الحاجة إلى إرجاع ذلك لمصدر غير مادى.

والمحدثين. لقد **اعتبروا أن العدم شيء Nothing is Something، وأن الوجود قد نشأ تلقائيًا من هذا الشيء الذى هو العدم!** أرجوك، لا تظن أننى أَسْخَر. هذا ما قالوه بالفعل !!

لقد فات ستينجر وزمرة الملحدين، أن العدم يعنى لا طاقة، لا مجالات فيزيائية، لا قوانين، لا فراغ ينشأ فيه الكون، لا بُعدًا ماديًا أو عقليًا من أى نوع . إن العدم **عدمٌ مُطلق Absolute Nothingness**، لا يمكن أن يُنشئ شيئًا، حتى لو أُعطى وقتًا لانهائيًا، **فى الحقيقة العدم ليس فيه وقت.**

ومن ثَمَّ، فإن ما أثبته العلم من أن طاقة الكون عند نشأته كانت صفرًا **يؤكد الاحتياج إلى عقل منطقى جبار خالق يخرجه، بكل ما فيه من انضباط من العدم المطلق**، ولا ينفى الاحتياج إلى الإله.

التعقل نعم، التصور لا[1]:

أُنهى هذا العرض لمفهوم المنطقية، باعتراض طرحه صديق. قال: لقد اقتنعت تمامًا (عن طريق المنطق العقلى) بضرورة وجود الإله الأزلى واجب الوجود، لكنى ما زلت عاجزًا عن «تصور» موجود لا موجد له.

قلت له، سببُ ذلك أننا دائمًا عاجزون عن «تصور» أى شيء يختلف عما اكتسبناه فى خبراتنا العملية، ونحن لم نقابل فى حياتنا موجودًا لا موجد له؛ وهذا هو سبب العجز عن تصور واجب الوجود.

والعجز عن التصور يقابلنا فى أمور أخرى كثيرة، فهل تتصور مثلًا أن خيط الدنا DNA (المادة الوراثية) الموجود فى نُوَيَّات خلايا جسمك يمكنه أن يقطع المسافة من كوكب الأرض إلى الشمس أكثر من خمسة ملايين مرة، إن الحسابات الرياضية تثبت ذلك، أى أن المنطق العقلى يثبت ذلك، بالرغم من العجز عن التصور.

* * *

(١) هذا الجزء لمؤلف كتاب رحلة عقل .

ثانيًا: الحياة Life

يُعتبر **تعريف الحياة**، من أشكل الأمور التى تواجه العلماء والفلاسفة، شأنها شأن العديد من الظواهر التى تُعَرَّف من خلال دراسة سماتها. لذلك نكتفى بأن نقول أن الكائن الحى ينبغى أن **تتوافر فيه سمات ثلاث**:

- موجود **له هدف** Goal Seeker ، كالمحافظة على النوع والبحث عن الغذاء.
- موجود **يتكاثر ذاتيًا** Self Replicator.
- موجود يستمد وجوده من **منظومة شفرية** (Coding System) تتحكم فى نشاطه الكيميائى.

إننا ما زلنا فى جهل مطبق بخصوص **كيف اكتسبت المادة غير الحية هذه السمات** حتى تنتج الخلية الأعجوبة الأولى، التى تطورت عنها باقى الكائنات الحية.

وفى الحقيقة، لا يوجد ما أضيفه على **عرض أنتونى فلو** (فى الفصل الثامن) لنشأة الحياة ودلالتها على الإله الخالق؛ لذا سأكتفى بأن أعرض وجهة النظر المقابلة **لإمام الملاحدة الجُدد ريتشارد دوكنز**، لنرى مدى تهربه، **وتهافت استدلالاته** وعجزها عن طرح أى تصور علمى حقيقى، بخصوص معضلة نشأة الحياة.

يقول دوكنز، فى مناسبات مختلفة:

- بدأت الحياة نتيجة حدوث تفاعلات كيميائية، أدت إلى **توافر الظروف الحيوية** التى سمحت بالانتخاب الطبيعى!
- ما إن **تَكَوَّن** الجزىء الوراثى الدنا DNA، حتى بدأ التطور بالانتخاب الطبيعى!
- كيف حدث هذا؟ يؤمن العلماء **بالقدرة السحرية** للأرقام الكبيرة (عدد الجزيئات، والزمن الممتد) على إنتاج أى شىء!
- كل ما نحتاجه **جزىء سحرى وفسحة من الوقت!**

ألا ترى معى أنه **بهذا الهُراء السحرى يمكن لأى شىء أن يحدث فى أى مكان.**

ثالثًا: الوعى Consciousness

يقوم الإنسان بست وظائف عليا أساسية، وهى: الوعى، والتفكير، والذاكرة، واللغة، والمنطق، والقدرة على الحكم على الأشياء. وقد تعارف المتخصصون على تسمية هذه الوظائف: **العقل**.

والمقصود هنا بالوعى، هو **أن ندرك ما نقوم به، وما يدور فى عقولنا، وما نرصده من حولنا**[1].

وكما لم يجرؤ الماديون على أن ينكروا الفوارق الجوهرية بين الكائنات الحية وبين المادة غير الحية، فإنهم لم ينكروا **أننا كبشر نعى ونُدرك، ونُدرك أننا نُدرك، وأن ذلك يعتبر فرقًا جوهريًا بيننا وبين باقى الكائنات الحية**.

المخ والوعى ...

عندما توصل العلم إلى معرفة بنية وآلية عمل الخلية العصبية، ظهر حجم المأزق الذى يواجهه الماديون. **فصفات الخلية العصبية، البيولوجية والفيزيائية والكيميائية، لا تشير على الإطلاق إلى إمكانية أن يتمخض عنها شىء كالوعى والإدراك**. كذلك فإن الخلية نفسها التى يصاحبها وعى وإدراك عندما توجد **فى القشرة المخية**، لا يصاحبها وعى وإدراك إذا وُجِدت فى مكان آخر من الجهاز العصبى (جذع المخ أو الحبل الشوكى مثلًا).

ويشرح «سام هاريس[2] Sam Haris» **طبيعة الوعى المتجاوزة للمادة** فيقول:

إن بنية المخ وأسلوب أدائه لوظيفته، لا يمكن أن يفسرا كيف تتحول النبضات الكهربائية والناقلات الكيميائية التى يمارس بها المخ وظائفه الحركية والحسية، إلى العمليات العقلية التى

(١) خير طريقة تُقَرِّب إلينا معنى الوعى، هو أن نقارن بين نشاطنا العقلى أثناء النوم ونشاطنا عندما نستيقظ ونسترد وعينا.

(٢) سام هاريس Sam Haris: باحث وكاتب أمريكى درس الفلسفة فى جامعة ستانفورد. ويجرى أبحاثه للدكتوراه حول استخدام الرنين المغناطيسى لدراسة الخلفية البيولوجية للإيمان والإلحاد.
من أشهر كتبه: «نهاية الإيمان The end of faith» صدر عام ٢٠٠٤، و«خطاب إلى أمة مسيحية Letter to a Christian nation»، صدر عام ٢٠٠٦.

نعهدها كلنا. **إن ذلك يدفعنا إلى الإقرار بأن العقل ليس نتاجًا مباشرًا للمخ المادى، ومن ثم يدفعنا إلى البحث عن مصدره الغيبى.**

ويضعنا عالم الفيزياء «جيرالد شرويدر Gerald Schroeder» أمام مفارقة صارخة، حين يشير إلى أننا إذا نظرنا إلى دقائق البنية المادية للأشياء **فلن نجد فرقًا يذكر بين مخ أينشتين وبين حفنة من الرمال**، فكلاهما يتركب من ذرات تتكون من نفس البروتونات والنيوترونات والإلكترونات.

الملاحدة والوعى

وبالرغم مما اكتشفه العلم عن الطبيعة المعجزة للوعى، فما زلنا نرى قلة باقية تتنكر لهذه الحقيقة الواضحة. فلنقرأ منظور الملحد المتفلسف «دانييل دينيت[1]» حول الوعى:

لا شك أن الآلات يمكن أن تعى، والدليل على ذلك أننا آلات واعية!! كذلك لا ينبغى أن نعطى للنشاط العقلى وضعًا خاصًا، **فمثله مثل الوظائف الأخرى**، كالشعور بالألم والجوع والعطش، فكل منها نشاط يحدث فى مكان من المخ مخصص لها. وكما **يقوم الكمبيوتر بنشاط عقلى!!** فلا داعى لإعطاء النشاط العقلى الذى يقوم به الإنسان سمة خاصة، تتجاوز قوانين الفيزياء التى يخضع لها الكمبيوتر.

سندع الرد على هذا الهراء لأحد الفيزيائيين الكبار من أصدقاء بينيت، وهو جون سير، إذ يقول متهكمًا عليه: «لا شك أن العمليات العقلية التى يقوم بها الإنسان تختلف تمامًا عن أنشطة المخ الأخرى، كما لا تخضع مطلقًا للقوانين الفيزيائية. إن من ينكر ذلك ليس فى حاجة لمقارعة الحجة بالحجة ولكنه فى **حاجة لعلاج نفسى**».

إن من ينكر الوعى يسقط فى **تعارض مُهلك مُخجل**؛ إذ إن إنكاره للوعى يتطلب أن يعى القضية التى ينكرها!

لذلك لم يملك بعض الماديين فكاكًا من الاعتراف بعجزهم أمام قضية العقل والوعى. فهذا دوكنز نفسه يقول ذات مرة: إنه من الصعب جدًّا تفسير طبيعة وعى الإنسان ومصدره،

(١) دانيال دانيت Daniel Dennett : أستاذ الفلسفة الأمريكى ببوسطن، وُلد عام ١٩٤٢.
من المهتمين بفلسفة العلم والعقل، وعلاقتها بالتطور.

أرجوكم **اقذفوا الكرة بعيدًا عنى إلى ملعب الآخرين**. وهذا زميله المتفلسف المادى وولبرت يقول: **لقد تحاشيت متعمدًا الخوض فى أى مناقشة حول الوعى**.

أين هذا التملص من صدق وأمانة أنتونى فلو فى أن يتبع البرهان إلى حيث يقوده .

* * *

رابعًا: التفكير Thinking

إذا كان الوعى هو أن ندرك ما نقوم به وما يدور فى عقولنا ومِن حولنا، فإن «**التفكير**» **هو أن نفهم ما ندركه ونعيه، وللفهم مستويات عديدة**.

فمن مهام التفكير العجيبة، القدرة على **اكتشاف الاختلاف بين معانٍ متقاربة**، وكذلك اكتشاف **الاتفاق بين معانٍ متباعدة**، والخروج من هذه وتلك بتعميمات يسميها الفلاسفة: **مفاهيم** Concepts.

لماذا يعتبر الصبى أن كلبه عنتر ضخم الجثة قوى البِنْية أسود الشعر ذا الفكين القويين، وكلب جارته اللولو الصغير أبيض الشعر المدلل الرقيق ـ من فصيلة واحدة هى فصيلة الكلاب؟

كيف تستطيع أنت أن تفكر فى اللون الأحمر **كلون مجرد**، دون أن تضطر إلى التفكير فى شىء أحمر اللون؟ بل إنك تستطيع أن تفكر فى **مفاهيم ليس لها وجود مادى ملموس، مثل العدالة والحرية**.

نحن نمارس تلك **القدرة بشكل فطرى**، التى لا تحتاج إلى جهد كبير أو تدريب.

التفكير والمخ

هل شعرت أثناء التفكير أنك **أنت الذى تفكر، وليس مخك هو الذى يفكر**؟! إن الأمر يختلف عن تحريك أصابع يدك، الذى تشعر معه أن يدك تقوم بوظيفة ما. وإذا كان المخ يُعين على التفكير، فليس معنى ذلك أن الفهم يتم فيه، لمجرد **أنك شَغَّلت بعض الخلايا العصبية، وسمحت لها بأن تنقل نبضاتها الكهربائية إلى خلايا أخرى مجاورة**.

وحتى تدرك طبيعة التفكير، فكر فى أمر مثل دعوة بعض الأصدقاء إلى طعام العشاء، سيقفز إلى ذهنك العديد من التساؤلات، مَن سأدعو؟ متى؟ أين؟ ماذا سأقدم لهم؟... هل أحسست أن تَدَبُّر هذه الأمور عملية مادية، كالمشى وصعود السلالم ؟

كذلك إذا كنا نستخدم **اللغة** فى الحديث وفى الكتابة والقراءة، فإن اللغة هى **وسيلتنا التى نفكر بها**، وليست هى التفكير نفسه. تمامًا مثلما أننا نلعب الشطرنج باستخدام رقعة الشطرنج وقِطَعه الاثنين والثلاثين، أما الخطط والقرارات وفهم مناورات الخصم، فشىء آخر.

إذا فهمنا هذه الأمور، أدركنا أن التفكير شىء يتجاوز الآليات المادية، وإن كان فى معظم الأحيان **يحتاج (كمادة خام) لمعلومات تقدمها لنا حواسنا المادية** (السمع - البصر - اللمس...).

نحن والكمبيوتر ...

ترجع معظم المفاهيم الخاطئة عن تفكير الإنسان، إلى **تشبيهه بأداء الكمبيوتر**. لنُزيل هذا اللبس، دعنا نقارن بين التفكير وبين أداء الكمبيوترات هائلة القدرة، مثل كمبيوتر الجين الأزرق Blue Gene الذى يقوم بأكثر من مائتى تريليون عملية حسابية فى الثانية.

إن أول خطأ نقع فيه، هو أننا **نعتبر أن للكمبيوتر ذاتًا أو كيانًا مستقلًا**، كالبكتريا أو الفراشة مثلًا، فلهذه الكائنات الحية **هدف أسمى** تعمل من أجل تحقيقه جميع أجهزة ومكونات الكائن، وهو المحافظة على بقائه وعلى استمرار نوعه من خلال التكاثر. أما الجين الأزرق فهو مجموعة من الأجزاء جمعها صانعها ونسق بين أدائها، ليقوم الجهاز بوظائفه التى يحددها الصانع، **دون هدف محدد** يدركه الجهاز. أى أن الكمبيوتر لا اعتبار له دون صانعه ومبرمجه، أى ليس له كيان مستقل.

الخطأ الثانى، هو أن الكمبيوتر **لا يدرك ما يفعل** عند قيامه بعملية معينة. فعمليات الكمبيوتر (بالنسبة للجهاز) مجرد نبضات ودوائر كهربائية تستخدم رمزين (الصفر والواحد). وحتى الآن لم يتجرأ الماديون أن يَدَّعوا أن الكمبيوتر يدرك ما يقوم به من وظائف.

الخطأ الثالث، أنه إذا كان **لعمل الكمبيوتر مردود له معنى بالنسبة لنا** (كأن نعرف عن يقين أننا على شفا الإفلاس، بما لذلك من عواقب نفسية واجتماعية، بعد أن أظهر الكمبيوتر أن حسابنا فى البنك كذا) فلا معنى لهذه المخرجات بالنسبة للكمبيوتر، الأمر كله نظام رقمى يتكون من مجموعة من الأصفار ومجموعة من الواحدات.

إذن، فنحن نفعل ما نفعله عن **قصد** Intention.

ونحن **مدركون** لما نفعل Awareness.

ونحن **فاهمون** لما نفعل Understanding.

هل ترى شبهًا بين تفكيرنا وبين العمليات الحسابية التى يقوم بها الكمبيوتر؟! **إن ادعاء أن كمبيوتر الجين الأزرق يعقل ما يفعل، تمامًا كالادعاء بأن جهاز DVD Player يفهم ويستمتع بالموسيقى والأغنيات والأفلام التى يذيعها!!**

* * *

خامسًا: إدراك الذات The Self

من المفارقات الساخرة والمؤلمة فى الوقت نفسه، **أن أكثر الظواهر التى يتجاهلها الملاحدة، هى أقربها إلى أنفسهم، إنها إدراكهم لذواتهم.**

يقول قطب الإلحاد ديفيد هيوم:

كلما اقتربتُ أكثر وأكثر مما أسميه «**نفسى**»، لا أجدنى منفصلًا عن إدراكاتى وملاحظاتى، حتى إننى أجزم بأنه **ليس لى وجود مستقل يقوم بالإدراك والملاحظة**، وأجزم أنه ليس هناك إلا الإدراك والملاحظة.

إن هيوم ينكر ذاته، لأنه – ببساطة – لا يستطيع أن يضع يده عليها.

وعندما سُئل «**من**» **الذى يُدرِك** هذه المدرَكات والملاحظات عن العالم الخارجى، وتجعلنا نستشعر **أننا فى منزلة المراقِب** لهذا العالم. مَنْ الذى يدرك أن ما يحيط بنا هو سوانا، الذى يمكن أن يتبدل، بينما **نبقى نحن لنرصد هذا التبدل** ونطرح هذه الأسئلة.

أجاب هيوم، **إن ذاتى هى أفكارى ومشاعرى وملاحظاتى**، وليس هناك ذات غير ذلك!!

لا شك أن «الذات» هى أكبر عقبة تواجه الفلاسفة الماديين، وأن إنكارها تواجهه عقبات كبيرة. وعندما سَأل أحدُهم **كيف تثبت أن لى ذاتًا؟** فوجئ بإجابة واحدة تنهال عليه من كل الجهات، **ومَن السائل؟!**

انتهى عرضنا لرأى الماديين، والآن هيا نتأمل ذواتنا:

عندما نقول «أنا» (ضمير المتكلم) أو هذا الشيء ملكى (الياء، مضاف إليه) أو هذا الرجل ضربنى (الياء، مفعول به)، ثم نتفكر فى هذه المواضع الثلاث التى تشير إلينا، سنجد أنفسنا فى مواجهة واحد من أعجب وأمتع الألغاز، إنه **وجودنا وذاتنا**.

إن ذواتنا هى حقيقتنا وليست شيئًا نملكه، وبالتالى فإن كل شيء يعود إليها. وإذا كان من المستحيل أن نضع أيدينا عليها، فإن ذلك يرجع إلى أنها **ليست وجودًا ماديًّا أو حالة عقلية أو معنوية** بحيث يمكن ملاحظتها ووصفها.

إن ذاتنا هى أكبر حقيقة نعيها جميعًا، **إنها نحن**. ولا شك أن إدراكنا لذواتنا هو أساس إدراكنا للوجود من حولنا، وللأفكار والقضايا الفلسفية الرئيسية فى عقلنا.

وإذا كان ديكارت يقول: «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، نستطيع أن نقلب المفهوم ونوسِّعه: **أنا موجود**، إذن أنا أفكر – أعى – أقصد – أعزم – أتفاعل.

إن ذاتنا شيء نستشعره، لا يمكن أن نصفه، ومن باب أولى لا يمكن أن نفسره بمعطيات الفيزياء والكيمياء. لن يستطيع العلم أن يكتشف الذات، بل هى التى تكتشفه. **إذا أنكرنا ذواتنا فإن التاريخ والحاضر والمستقبل كله يصبح سرابًا غير متناسق، بل يصبح خيالًا متضاربًا متصارعًا.**

ليس لدينا دليل على أن الذات موجودة فى جزء معين من الجسم، أو فى مجموعة خلايا محددة فى المخ، فخلايا أجسادنا تتبدل ونبقى نحن كما نحن. وإذا قلنا أن معظم خلايا أمخاخنا لا تتبدل، فإن دراسة هذه الخلايا بإمعان لا توصلنا إحداها أو بعضها إلى «الأنا = الذات».

لا شك أن ذاتك ليست شيئًا ماديًّا صِرفًا، كما أنها ليست شيئًا معنويًّا صرفًا.

نستطيع أن نقول إننا **أرواح متجسدة**[1] أو **أجساد متروحنة**. لذلك لكى تكون إنسانًا له ذات، **لا بد من الجسد والروح معًا.**

وأخيرًا نقول: إن الأمر **يحتاج لإيمان أعمى بالمادة، يفوق كثيرًا إيمان المؤمنين بالإله**، حتى نتصور أن المادة غير الحية يمكن أن ينشأ عنها حياة وعقل ووعى وتفكير وإدراك للذات!

(١) المقصود بالروح هنا: وجود غير مادى، له قدرات نلمسها جميعًا. ويرى كاتب هذه الخاتمة أن الروح الإنسانية هى الذات الإنسانية.

مصدر الظواهر غير المادية

ما مصدر الظواهر الخمس التى عرضناها (المنطقية - الحياة - الوعى - التفكير - إدراك الذات)؟

إذا كانت **الظواهر الفيزيائية الـمُـرَكَّبة** (مثل الزلازل) يمكن أن تنشأ عن ظواهر فيزيائية بسيطة (تركيب القشرة الأرضية من صفائح + ارتفاع الضغط فى قلب كوكب الأرض + تجارب التفجيرات النووية تحت سطح الأرض + ...)، فإن هذه الظواهر الخمس تختلف تمامًا عن الظواهر الفيزيائية المركبة والبسيطة.

وإذا كان الماديون التطوريون يشرحون لنا كيف أصبحت السمكة ضفدعة، وكيف اكتسبت الديناصورات الصغيرة ريش الطيران، فإنهم لا يملكون لنشأة هذه الظواهر الخمس شرحًا ولا تفسيرًا.

إنها **ظواهر غير مادية**، ومن ثَمَّ فإن التفسير الذى يمكن أن يجمع هذه الظواهر هو أنها **استمدت وجودها من وجود أعلى، وجود غير مادى يتمتع بنفس الصفات**، خالق حى مدرك مفكر منطقى، **إذ إن فاقد الشىء لا يعطيه**.

القارئ الكريم ...[1]

وتظل جوانب أخرى من القضية مطروحة أمام الفلاسفة والعلماء، منها:

هل الحياة والعقل والذات موجودات غير مادية متحيزة فى الجسد، أم أنها توجد خارجه ولها اتصال به؟

من أجل أن نوضح هذا التساؤل، فلننظر إلى طاقة الشمس. فالحياة فى كوكبنا مُستَمَّدة من الشمس، لكن الشمس ليست متحيزة فى كوكب الأرض، إنها بعيدة، وفى الوقت نفسه تمدنا بالطاقة اللازمة للحياة والوجود.

فهل الحياة والعقل والذات موجودون خارج أجسادنا وأنخاخنا، ويمدوننا عن بُعد، كما يحدث فى البث التليفزيونى. فالممثلون والمذيعون والموسيقيون موجودون

(١) الجزء التالى من وضع مؤلف رحلة عقل .

هناك بعيدًا، وتُبَث الموجات فى الهواء لتستقبلها أجهزة الاستقبال، وتنقلها إلى عيوننا وآذاننا وعقولنا.

وإذا كان عطب جزء من المخ قد يصحبه عجز عن التفكير، فليس معنى ذلك أن التفكير يُمارَس فى المخ! تمامًا كما ينقطع البرنامج إذا تعطل صمام أو ترانزستور فى جهاز التليفزيون، بينما يظل البث مستمرًّا وتظل الموجات الكهرومغناطيسية المحملة بالبرامج تملأ الهواء من حولنا.

إن الظواهر غير المادية التى ذكرناها، لا يمكن دراستها بالمنهج المادى الاختزالى، الذى يحلل كل شىء حتى يصل به إلى مستوى مجالات من الطاقة. فعند هذا الحد، تكون ظاهرة الحياة (وما يتبعها من وعى وتفكير وإدراك الذات) قد اختفت أصلًا!!

إن المنهج المادى يؤدى دورًا شديد الأهمية على مسرح الحياة، لكن لا ينبغى أن نستخدمه فى غير مجاله.

نستطيع أن نقول بيقين: إنه قد آن للعلم الحديث أن يستنجد بالسماء ليستكمل مشوار الفهم لما يحدث داخلنا ومن حولنا.

obeikan.com